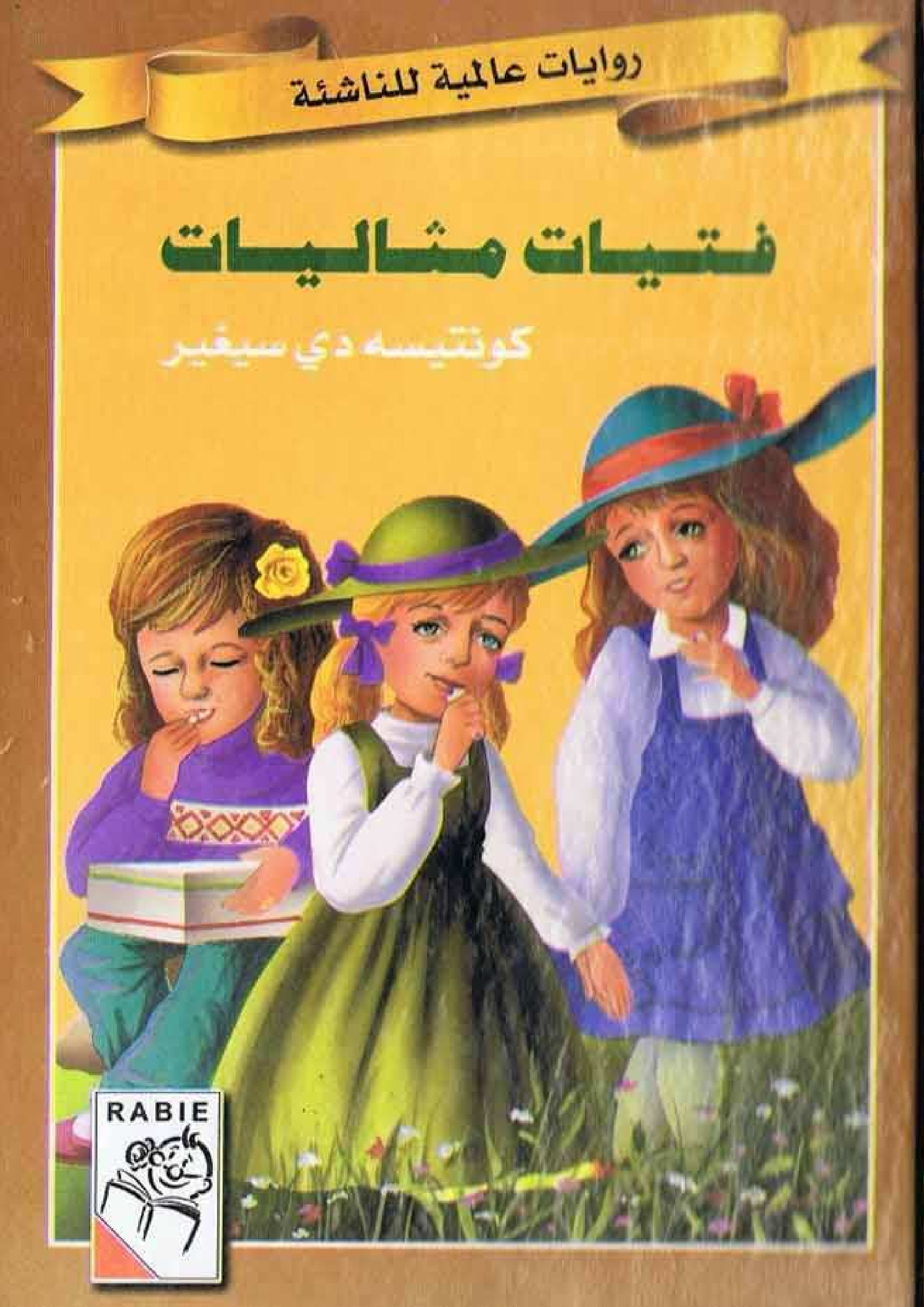


فتيات مثاليات

كونتيسه دي سيغير

RABIE

24

فتيات مثاليات

كونتيسه دي سيغير

مادلين وكاميل من عائلة فلورفيل ، تعيشان مع أمهما حياة سعيدة . وتتعرفان إثر حادثة على فتاة صغيرة اسـمها مرغريت . وتحاول الفتيات الثلاث رعاية صوفي اليتيمة التي تعاني من الظلم والوحـدة ، فكيف ينقذنها من حياتها القاسية؟ .

1 ـ الذئب الأبيض
2 ـ توم سوير
3 ـ الهندي الشجاع
4 ـ مذكرات حمار
5 ـ نداء الغابة
6 ـ روبنسون كروزو
7 ـ هايدي
8 ـ حكايات أندرسون
9 ـ عشرون ألف فرسخ تحت البحار
10ـ ريمي الصغير
11ـ نساء صغيرات
12ـ جزيرة الكنز
13ـ حول العالم في ثمانين يوماً
14ـ كوخ العم توم
15ـ شرلوك هولمز
16ـ مغامرات الكابتن فراكاس
17ـ حرب النار
18ـ الحوت الأبيض
19ـ كتاب الأدغال
20ـ أحدب نوتردام
21ـ اللورد الصغير
22ـ الشيطان الصغير
23ـ أحزان صوفي
24ـ فتيات مثاليات

تصميم الغلاف : هيثم فرحات

دار ربيع للنشر
RABIE PUBLISHING HOUSE

فتيات مثاليات

(كونتيسه دي سيغير)

1799 –1874

ترجمة

د. محمد نديم خشفة

ذكرى حاج حسين

إشـراف : محمـد كمـال

إخراج فني : م. نشوان خريط



فتيات مثاليات

الفصل الأول

كاميل ومادلين

كان لدى السيدة فلورفيل فتاتان صغيرتان تتصفان باللطف ودماثة الأخلاق ، ولا تفارق إحداهما الأخرى ، وقد تعودنا أن نرى الإخوة والأخوات يتخاصمون ، ثم يُهرعون إلى أهلهم ليفصلوا بينهم ، فلا يعرفون المخطئ منهم والمصيب ، ولكن لم يحدث أن تخاصمت كاميل ومادلين أبداً ، فكل منهما تسعى إلى تلبية رغبات الأخرى .

لم تكن ميولهما متفقة ، أما كاميل التي تكبر مادلين وعمرها ثماني سنوات فهي حيوية كثيرة الحركة تفضل الألعاب الصاخبة على الألعاب الهادئة ، وتحب الجري

وإحداث الضوضاء ولا تجد متعتها إلا حين يجتمع عدد كبير من الأطفال فتشاركهم ألعابهم .

وأما مادلين فعلى العكس منها : تفضل الاعتناء بدميتها ورعاية أختها كاميل التي لولاها لما بدلت أغطية سريرها إلا كل ثلاثة أو أربعة أيام .

ولكن اختلاف ذوقيهما لم يمنع من توثق العلاقة بينهما ، فكانت مادلين لا تتردد في التوقف عن القراءة أو اللهو بدميتها إذا عبّرت كاميل عن رغبتها في النـــزهة أو الجري بين الحقول ، وكذلك تفعل كاميل فتضحي بالنـــزهة أو ملاحقة الفراشات إذا أحبت مادلين القراءة ، أو سواها من المتع الهادئة .

كانت هاتان الأختان سعيدتين ، وقد رضيت أمهما عنهما وأحبتهما ، كما أحبهما كل من عرفهما ، ويسعى الجميع إلى إدخال البهجة إلى قلبيهما وتلبية رغباتهما .

الفصل الثاني

النـزهة ، الحادثة

ذات يوم كانت مادلين تمشط دميتها وتساعد أختها في ترتيب أدواتها من أمشاط وفساتين وأحذية ، وتبديل مكان سرير الدمى وخزانتها وكراسيها وطاولاتها ، لأن الدمية كما تصورتا قد سكنت منـــزلاً جديداً .

مادلين : أؤكد لك يا كاميل أن الدمى كانت تسكن أفضل من هذا المنـــزل الجديد ، فهو فسيح يتسع لأثاثها .

كاميل : نعم ، هذا صحيح ، ولكنها ملت من المنـــزل القديم ، كما أن غرف المنـــزل الجديد صغيرة ويمكن تدفئتها بسهولة .

مادلين : لا تنسي أن سرير هذه الدمية قريب من الباب الذي تهب منه الريح ، وتلك الدمية تنام قرب النافذة فلا تحس بالدفء .

كاميل : حسناً .. حين تقضي الدمى بعض الوقت في المنــزل الجديد وتكبر قليلاً ، سنبحث لها عن مسكن أوسع منه ، هل هناك شيء آخر يضايقك يا مادلين ؟ .

مادلين : لا .. أبداً .. خاصة إذا كان هذا يدخل السرور على نفسك .

بعد أن انتهت كاميل من نقل الدمى إلى بيتها الجديد ، مشطتها كاميل وألبستها ثيابها ، واقترحت على أختها أن تنادي المربية لترافقهما في نزهتهما ، ونادت إليزا .

قالت كاميل : إليزا . هل تأتين لتتنــزهي معنا ؟

إليزا : بكل سرور .. إلى أين نمضي ؟

كاميل : سنمضي إلى الشارع العام لنتفرج على العربات ، أليس كذلك يا مادلين ؟

مادلين : طبعاً ، وإذا صادفنا بعض الفقراء ، نتصدق عليهم ببعض المال ، سآخذ معي خمسة قروش .

كاميل : آه .. معك حق ، سآخذ معي خمسة قروش .

انطلقت الفتاتان مسرورتَيْن تجريان أمام مربيتهما حتى وصلتا إلى السياج الذي يفصلهما عن الشارع ، وبانتظار مرور العربات كانتا تقطفان الزهور لتصنعا منه أكاليل للدمى .

هتفت مادلين :

– إني أسمع صوت عربة .

– إنها تجري مسرعة سنراها بعد قليل .

– اسمعي يا كاميل إنه صوت استغاثة .

– لا .. لا أسمع سوى صوت العربة تجري .

ولم تخطئ مادلين ، فما كادت كاميل تنهي كلامها حتى سمعت أصوات استغاثة ، وبعد لحظة ظهرت عربة تجرها ثلاثة خيول وهي تجري مسرعة وسائقها يحاول أن يوقفها ولا يستطيع .

كانت امرأة وابنتها ذات الأربعة أعوام تطلقان صرخات عالية ، وعلى بعد مائة خطوة من السياج سقط السائق من

مقعده ومشت العربة فوقه ، ولما أحست الخيول بأنه لا أحد يمنعها أو يوجهها ضاعفت من سرعتها وسقطت في حفرة تفصل الشارع عن الحقل المزروع ، وكم كان خوف مادلين وكاميل والمربية عظيماً وهن يرين العربة والخيول وسط الحفرة وقد توقفت أصوات الاستغاثة .

ومرت بضع لحظات قبل أن تسيطر المربية على خوفها وتفكر بإنقاذ المرأة وابنتها اللتين جرحتا أو ماتتا .

وهذا السائق ألا يجب إنقاذه أيضاً ؟

سارعت المربية إلى العربة التي هوت في الحفرة تتبعها مادلين وكاميل وهما ترتعدان .

كان أحد الخيول قد قُتل ، و الثاني انكسرت ساقه فلا يقدر على النهوض ، والثالث أذهلته السقطة فلم يتحرك من مكانه .

قالت المربية : سأحاول فتح الباب .. ولكن لا تقتربا ، فقد ينهض أحد الخيول ويصيبكما بأذى .

وفتحت الباب فإذا المرأة وابنتها بلا حراك والدم يسيل منهما .

– يا رب ، ربما ماتت الأم وابنتها !

كانت مادلين وكاميل تبكيان ، وأما إليزا فقد حاولت أن تنتزع الطفلة من حجر أمها التي تشبثت بها ، واستطاعت أن تحملها بعد جهد جهيد ، وكانت الطفلة شاحبة ملطخة بالدماء ، ولم تشأ أن تمددها على الأرض الرطبة ، فطلبت من الفتاتين أن تسيطرا على خوفهما وتحملاها إلى الجانب الآخر من السياج .

قالت كاميل : هاتيها .. سأحملها ، فهي مغطاة بالدماء ولكنها ليست ميتة ، وأنت يا مادلين ساعديني على حملها .

أجابت مادلين بصوت ضعيف خائف : لا أستطيع رؤية هذه الدماء والأم الميتة ! ليس عندي القوة لمساعدتكم ، ولا أستطيع سوى البكاء .

قالت كاميل : سأحملها وحدي .. سيمدني الله بالقوة على حملها .

ورفعت الطفلةَ الصغيرة بيديها وحاولت صعود الحفرة ، ولكنها كانت ثقيلة عليها فانزلقت قدمها وكادت تسقط الطفلة من يديها ، لولا أن مادلين تغلبت على خوفها واندفعت لمساعدة أختها في حمل الطفلة ونقلها إلى الجانب الآخر من الطريق ووضعها على العشب .

مددت كاميل الطفلة على حجرها ، وجلبت مادلين الماء من الحفرة ، ومسحت كاميل بمنديلها وجه الطفلة الذي غطته الدماء .

ولم تستطع أن تكتم صرخة فرح انطلقت من حنجرتها حينما رأت أن الطفلة مصابة بجروح :

– مادلين .. إليزا أسرعا ! الطفلة ليست ميتة ، لقد تنفست وهي تفتح عينيها الآن .

وبكت الطفلة قائلة :

– ماما .. ماما .. أريد أن أرى ماما .

قالت كاميل وهي تقبلها :

– ستأتي ماما ، ستأتي .. لا تبكي ، لا تبكي .. ابقي معي ومع أختي مادلين .

– لا .. أريد أن أرى ماما .. حملت الخيول الشريرة ماما !

– الخيول الشريرة سقطت في الحفرة .. انظري هاهي مربيتي إليزا تحمل أمك النائمة .

وبمساعدة رجلين كانا يعبران الشارع استطاعت المربية أن تجذب الأم .

لم تكن الأم تبدي حراكاً ، وكان في رأسها جرح عميق والدم يغطي وجهها وعنقها وذراعيها ، ولكن قلبها ما يزال ينبض .. لم تكن قد فارقت الحياة .

أرسلت المربية أحد الرجلين إلى السيدة فلورفيل لكي ترسل نجدة من الرجال لينقلوا الأم والطفلة إلى القصر ،

ورفعت السائق عن الطريق وفكت الخيول التي كانت تتخبط بدمائها .

انطلق الرجل ، وبعد ربع ساعة وصلت السيدة فلورفيل ومعها بعض الخدم وعربة نقلت المرأة ، ثم أسعفوا السائق وسحبوا العربة من الحفرة .

أثناء ذلك كانت الطفلة قد استردت وعيها ، فلم تكن مجروحة ، وأما إغماؤها فكان من الخوف وصدمة السقوط ، وخوفاً من أن ترى الدماء التي تسيل من أمها طلبت كاميل ومادلين من أمهما أن يلحقا بها مشياً على الأقدام ، وكانت الطفلة قد ألفت الفتاتين وظنت أن أمها نائمة فقبلت أن تجري معهما ، وفي الطريق كانت كاميل ومادلين تحادثانها .

مادلين :

– ما اسمك يا حبيبتي ؟

– مرغريت .. اسمي مرغريت .. وأنتما ما اسمكما ؟

كاميل :

– أنا اسمي كاميل ، وهذه أختي مادلين .

مرغريت :

– سأناديكما ماما مادلين وماما كاميل .

وصلن إلى القصر وهن يتحادثن ، وسارعت السيدة فلورفيل إلى استدعاء الطبيب ، وأرقدت السيدة رسبورغ الجريحة في فراشها ، وقد عرفت اسمها من البطاقة الملصقة على حقائبها ، وربطت جراحها لتوقف النــزيف ، فبدأت تستعيد وعيها تدريجياً ، وبعد نصف ساعة طلبت رؤية طفلتها .

دخلت مرغريت بهدوء لأنه قيل لها إن أمها مريضة ، ورافقتها كاميل و مادلين .

قالت مرغريت :

– يا أمي المسكينة .. هل رأسك يؤلمك .

– نعم يا بنيتي .. يؤلمني كثيراً .

– أريد أن أبقى معك يا ماما .

– لا يا حبيبتي ، عانقيني ثم اذهبي مع هاتين الفتاتين اللطيفتين .

– نعم يا ماما .. إنهما لطيفتان فعلاً .. كاميل أهدتني دميتها الجميلة .. ومادلين أطعمتني مربى الكرز .

وابتسمت السيدة رسبورغ لفرح الطفلة ، ولكن السيدة فلورفيل لاحظت أنها ضعيفة و لا تقوى على الكلام ، فطلبت من مرغريت أن تلعب مع الفتاتين لكي تنام أمها ، وخرجت الفتاتان مع الطفلة .

الفصل الثالث

لقاء لا فراق بعده

على حين كانت الفتيات يلعبن ، جاء الطبيب لعيادة السيدة رسبورغ ولم يجد جرحها خطيراً ولا تحتاج لنقل الدم إلى جسمها ، فضمد جرحها بعد أن صب عليه المطهرات ، وأوصاها بالراحة ، ووعد أن يزورها غداً .

كانت مرغريت تزور أمها وهي في الفراش عدة مرات باليوم ، ولكنها لا تبقى مدة طويلة لأن ضجتها وأسئلتها تزعج الأم وإن كانت تدفعها إلى الابتسام ، وتشير السيدة فلورفيل إلى الأختين فتأخذان الطفلة معهما وتخرجان .

مازالت السيدة فلورفيل تعالج الأم حتى أبلّت من مرضها ، وعبّرت أثناء نقاهتها عن شكرها لها وأسفها لفراق هذه الصديقة التي بذلت ما في وسعها لرعايتها والعناية بها .

قالت لها السيدة فلورفيل :

– لماذا ترحلين يا صديقتي ؟ لماذا لا نعيش معاً ؟ فقد تعودت الفتاتان على مرغريت ولا أظن الصغيرة تصبر على فراقهما ، ويسعدني أن تبقي معنا .

السيدة رسبورغ :

– ألن أتطفّل عليك ؟

السيدة فلورفيل :

– مطلقاً .. فأنا أعيش منعزلة عن الناس بعد وفاة زوجي ، وقد حكيت لك عن مصرعه المؤسف في معركة مع الأعداء منذ ست سنوات ، وأنا أعيش في الريف ، وأنت قد فقدت زوجك أيضاً لأنك لا تعرفين أخباره بعد أن غرقت السفينة التي ركبها .

السيدة رسبورغ :

– وا أسفاه : لا ريب أنه غرق مع تلك السفينة المشؤومة ، ولم تؤد الأبحاث التي أجراها أخي البحار منذ

عامين إلى أي نتيجة ، ولم نجد لزوجي أثراً ولا لأحدٍ من رفاقه .

وبما أنك تصرين على بقائي معك فسوف أقبل هذه الدعوة ، ولتكن مرغريت أختاً جديدة لكاميل ومادلين .

السيدة فلورفيل :

– هل أنت جادة في قولك ؟

السيدة رسبورغ :

– طبعاً .. ولن أخيب رجاءك .

السيدة فلورفيل :

– شكراً لقبولك دعوتي .. وسوف أزفّ هذا النبأ إلى الفتاتين ، سيسعدهما ذلك .

دخلت السيدة فلورفيل إلى غرفة كاميل ومادلين اللتين تحفظان دروسهما باجتهاد ، ومرغريت تلهو بالدمى وتحكي لها حكايات بصوت خافت لئلا تزعج الفتاتين .

السيدة فلورفيل :

– سأعلن لكما النبأ السعيد الذي كنا نخشى أن لا يتحقق ، وهو أن السيدة رسبورغ ستبقى معنا .

كاميل :

– كيف يا أمي ؟ هل ستبقيان معنا دوماً ؟

السيدة فلورفيل :

– نعم على الدوام ، لقد وعدتني السيدة رسبورغ بذلك .

هتفت البنات الثلاث معاً :

– آه .. ما أسعدنا ..

وجرت مرغريت تقبل السيدة فلورفيل التي قالت لكاميل ومادلين :

– إذا أردتما أن أظل سعيدة معكما فأرجوكما أن تستمرا على الاجتهاد في دروسكما وأن تطيعا أوامري وأن يدوم الودُّ بينكن ، مرغريت أصغر منكما وسوف تتكفلان

بتعليمها بإشراف أمها وإشرافي أنا ، ولا تقصرا عليها بالنصائح المفيدة وكونا مثلاً أعلى تتبعه .

كاميل :

– لا تقلقي يا أمي سنرعى مرغريت أحسن رعاية مثلما فعلت أنت بالنسبة لنا ، وسوف أعلمها القراءة والكتابة وتعلمها مادلين الخياطة وترتيب أشيائها .. أليس كذلك يا مادلين ؟ .

مادلين :

– بالتأكيد .. وهي لطيفة لا تتعبنا .

وقالت مرغريت وهي تمسك بيدي كاميل ومادلين :

– سأكون عاقلة ، سأسمع كلامهما وأنفذ طلباتهما .

كاميل :

– مرغريت ، إذا أردت أن تسمعي كلامي فاذهبي إلى الحديقة وتنـــزهي فيها مدة ساعة لأننا منذ بدأنا دروسنا وأنت جالسة ، وسوف تمرضين إذا بقيت على هذا الحال .

مرغريت :

– أرجوك يا كاميل ، سأبقى معك فأنا أحبك كثيراً .

ولاحظت مادلين أن أختها ستضعف وتترك الطفلة معها في الغرفة ، وإذا ضعفت مرة فلن تسمع مرغريت كلامها ، لذلك أمسكت الطفلة من يدها وفتحت الباب وقالت لها :

– يا عزيزتي مرغريت ، لقد طلبت منك كاميل الخروج ولم تنفذي طلبها فأنت لست عاقلة كما وعدتنا ، ولا تكون البنت عاقلة إلا إذا نفذت طلبات صديقاتها .. هيا تنــزهي ساعة ثم عودي إلينا .

رفعت مرغريت عينيها تتوسل إلى كاميل التي حولت عنها نظرها لئلا تضعف ، فهي تحبها أشد الحب ، وخرجت مرغريت إلى الحديقة .

كانت السيدة فلورفيل ترقب هذا المشهد صامتة ، ثم تقدمت إلى مادلين وقبلتها ثم قالت :

– أحسنت يا مادلين ، وأنت يا كاميل يجب أن تكوني أكثر شدة معها ، وإلا أفسدتها ، وافعلي مثل ما فعلت أختك .

ثم خرجت .

الفصل الرابع
الأزهار المقطوفة

قالت مرغريت لنفسها :

– إنني أسأم وحدي ، وكم تمنيت لو أبقى مع مادلين وكاميل في الغرفة ، و لكن مادلين قاسية علي على العكس من كاميل التي كانت تريدني أن أبقى ، وأنا لا أكره مادلين ولكني أفضل عليها كاميل لأنها تتركني أفعل ما أشاء ، والآن كيف أقضي الوقت وأتسلى ؟ لدّي فكرة .. سوف أنظف الحديقة وأكنسها .

جعلت تكنس الأوراق في الحديقة ، ثم خطر لها أن تجمع باقة من الأزهار تقدمها إلى كاميل ومادلين ، وفكرت : سأجمع باقة من الأزهار أضعها في غرفتهما ، وسوف تنتشر فيها الرائحة العطرة .

ونفذت فكرتها فجمعت أنواع الأزهار من ورد وياسمين وقرنفل وكل ما وقع تحت يدها ، وجعلتها في مئزرها كومة واحدة ، وبعد أن انتهت من عملها جرت إلى غرفة مادلين وكاميل وقالت لهما مبتهجة :

– انظرا ماذا جلبت لكما !

وفتحت مئزرها لترى الأزهار كلها ذابلة أو مكسورة الأوراق .

وتابعت قائلة :

– قطفت هذه الأزهار لنضعها في غرفتنا وينتشر عطرها .

وتبادلت مادلين وكاميل النظرات وهما تبتسمان لرؤية مرغريت محمرة الوجه ، وسألتها مادلين :

– أين قطفت هذه الأزهار يا مرغريت ؟

– في الحديقة .

– كل هذه الأزهار من الحديقة ؟

– كلها .. لم أترك زهرة في الحديقة إلا قطفتها ، حتى البراعم .

لقد سببت مرغريت لهما الألم دون أن تدري فهي صغيرة لا تعرف كيف تقطف الأزهار ، وكانت مادلين وكاميل تحتفظان بهذه الأزهار لمناسبة عيد الأم بعد غد ، وقد أفسدت عليهما هذه المتعة ، ولكنهما لم تجرؤا على توبيخها لأنها تظن أنّ ما فعلته مفاجأة جميلة .

وفوجئت مرغريت حين لم تسمع منهما كلمات الشكر ، وقرأت على وجهيهما الحزن والأسف ، فأدركت أنها فعلت شيئاً سيئاً وبدأت تبكي .

قالت لها مادلين :

– كم مرة قلنا لك ألاّ تلمسي شيئاً قبل أن تطلبي الإذن ، قطفت أزهارنا التي أردنا أن نقدمها إلى ماما بعد غد بمناسبة عيدها ، وكم تعبنا في زرعها وسقيها ورعايتها ،

فأفسدت كل شيء بلحظة واحدة ولم يعد لدينا شيء نقدمه لها .

قالت كاميل :

– لا نريد أن نوبخك لأننا نعلم أن نيتك طيبة ، ولم تفعلي هذا بدافع خبيث .

ولم تكف مرغريت عن البكاء ، فقالت لها مادلين :

– اسكتي الآن يا حبيبتي .. لسنا غاضبَتَيْن عليك ولكنك خالفت ما طلبناه منك .

ولاحظت كاميل ومادلين أن الطفلة شديدة الحزن وقد انتفخت عيناها من البكاء ، فحاولتا تهدئتها .

في هذه اللحظة دخلت السيدة رسبورغ ودهشت لرؤية مرغريت على هذه الحالة فسألت :

– ما بك يا بنيتي .. هل فعلت شيئاً مؤذياً ؟

قالت مادلين :

– لا .. يا سيدتي .. ولكننا نحاول إسكاتها .

السيدة رسبورغ :

– وماذا فعلت يا مرغريت ؟

ولم تستطع مادلين أن تشرح لها السبب ، وحاولت كاميل أن تتلفظ بعض الكلمات ولكنها غصّت بها وقد أحمر وجهها .

وزادت دهشة السيدة رسبورغ :

– قولي لي أنت يا مرغريت لماذا تبكين ؟

مرغريت :

– آه يا ماما .. كنت شريرة .. وآذيت صديقتيّ ، ولكن لم أقصد ذلك ، لقد قطفت الزهور التي كانت هدية في عيد الأم للسيدة فلورفيل ، وبدلاً من أن توبخاني حاولتا إسكاتي .. آه يا رب .. كم أحس بالأسى ! .

السيدة رسبورغ :

– أحسنت صنعاً إذ اعترفت بأخطائك ، ولكن على شرط ألا تعيديها ، ولو كنت مكانهما لعاقبتك ، ولكنهما طيبتان وتحبهما أمهما .

وتركت السيدة رسبورغ في الغرفة ثم نادت السائق وطلبت منه تجهيز العربة ، وبعد مدة قصيرة ذهبت إلى المدينة المجاورة التي لا تبعد أكثر من خمسة كيلو مترات ودخلت حانوت بائع الأزهار واختارت أجمل شتلات من الأزهار .

قالت السيدة رسبورغ لبائع الأزهار :

– أرجوك يا سيدي أن تحمل هذه الشتلات إلى السيدة فلورفيل ، وسوف أدلك على المكان الذي يجب أن تزرع فيه ، وعليك أن تتابع هذه العملية وتقوم بها ليلاً حتى تكون مفاجأة للفتاتين .

– لا تقلقي يا سيدتي ، بعد غروب الشمس سآخذ هذه الشتلات إلى المكان الذي ذكرته ، وأقوم بنفسي على العناية بها دون أن يراني أحد ، ولن أخالف أوامرك .

– كم تريد ثمن الأزهار والشتلات ؟

– أربعين فرنكاً .. هناك ستون شتلة بالإضافة إلى أجرة زرعها ، هل هذا غال ؟

– لا .. أبداً ، سأدفع ثمنها حين توصلها إلى القصر .

رجعت السيدة رسبورغ إلى القصر وأمرت خادمتها أن تنتظر بائع الأزهار عند المغيب ، وتتركه يزرع الشتلات في حديقة كاميل ومادلين ، ولم تلاحظ السيدة فلورفيل غيابها .

ما إن تركت السيدة رسبورغ البنات حتى أسرعن إلى الحديقة ، وفكرت كاميل :

– لعل هناك بعض الزهور لم تقطفها مرغريت .

وحين وصلن لم يجدن زهرة واحدة ، ونظرتا إلى الأزهار بحزن ، وترقرقت عينا مرغريت بالدموع ، وقالت مادلين :

– لا فائدة .. لم تبق زهرة واحدة ، سنحاول زراعة شتلات جديدة فيما بعد .

مرغريت :

– خذي كل دراهمي يا مادلين .. معي أربعة فرنكات .

مادلين :

– شكراً لك يا حبيبتي احتفظي بها للفقراء .

مرغريت :

– ولكن إذا لزمك المبلغ فلا تترددي في طلبها مني .

مادلين :

– نعم .. نعم ، سنفكر في هذا .. والآن يجب تحضير التراب لاستقبال الشتلات .

وبدأت الفتيات بتهيئة التراب ونزع الجذور والأوراق المتناثرة ورميها في الغابة .. ورأتهن السيدة رسبورغ فقالت :

– يا لكن من عاملات نشيطات .. التراب ملائم الآن لاستقبال الزهور ، وأنا واثقة أنها ستنبت من تلقاء نفسها .

– سيكون عندنا زهور قريباً .. سترين يا سيدتي .

– لا ريب في ذلك .. لأن الله يجزي الفتيات الطيبات أمثالكن .

بعد أن أنهين تهيئة الحديقة أعدن المعدات إلى مكانها ، ولعبن مدة ساعة قبل أن يحين موعد الغداء .

من الغد ، نهضت الفتيات باكراً لإتمام عمل البارحة ، وحين وصلن إلى الحديقة وقفن مذهولات ، فالحديقة حافلة بالزهور من كل نوع وأفضل مما كانت عليه قبل أن تقطف مرغريت أزهارها .

لم يجدن تفسيراً لوجود هذه الزهور ، ولكن الفرحة غمرتهن فجعلن يتنقلن كالفراشات من زهرة إلى زهرة ، يتأملن جمال هذه الحديقة التي نبتت في ليلة واحدة .

قالت كاميل :

– إنها معجزة من الله .

وقالت مادلين :

– إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

وقالت مرغريت :

– هل الملائكة هي التي زرعت هذه الحديقة .

في تلك الآونة وصلت السيدة فلورفيل ومعها السيدة رسبورغ فأشارت السيدة فلورفيل إلى صديقتها وقالت :

– هذه أحد الملائكة الذين زرعوا هذه الحديقة .

اشكرن السيدة رسبورغ على ما قامت به من جهد لكي تعدّ لكنّ هذه المفاجأة .

وسارعت الفتيات إلى معانقة السيدة رسبورغ .

من الغد ، كانت باقة كبيرة من أجمل الأزهار في غرفة السيدتين فلورفيل ورسبورغ بمناسبة عيد الأم .

الفصل الخامس

معاقبة كاميل

في مكان لا يبعد سوى خمسة كيلو مترات عن قصر فلورفيل تعيش فتاة صغيرة عمرها ست سنوات اسمها صوفي .

ماتت أمها في حادث غرق ، وتزوج أبوها ، ولكنه توفي هو أيضاً بعد زمن قليل ، وبقيت صوفي مع خالتها زوجة أبيها التي استقرت في المزرعة التي خلّفها لها زوجها ، وكانت تدعى السيدة فيشني . وفي بعض الأحيان كانت السيدة فيشني تزور قصر فلورفيل تصحبها الصغيرة صوفي .

ذات يوم ، حينما كانت الفتيات الثلاث متوجهات إلى النــزهة توقفت عربة أمام القصر ونزلت منها السيدة فيشني وصوفي .

قالت لها كاميل ومادلين :

– صباح الخير يا صوفي ، تسرنا رؤيتك .. صباح الخير يا سيدتي .. مرحباً بك !

– مرحباً يا عزيزتيَّ ، سأذهب إلى القاعة لأرى والدتكن .. لا تقطعوا نزهتكن .. وهل يزعجكن اصطحاب صوفي معكن ؟ .

ثم التفتت إلى صوفي وقالت لها بصوت رهيب :

– وأنت يا آنسة صوفي كوني عاقلة ، فالعصا في انتظارك حين نعود .

لم تجبها صوفي وإنما أطرقت برأسها إلى الأرض ، فاقتربت منها السيدة فيشني وعيناها تقدحان شرراً :

– أين لسانك .. هل أكله القط ؟

– كما تأمرين .. يا ماما ..

فأدارت السيدة فيشني ظهرها وتوجهت إلى المنــزل .

كانت كاميل ومادلين مذهولتين ، وأما مرغريت فقد اختبأت وراء صندوق برتقال .

قالت صوفي :

– لنذهب ، لا أريد أن أدخل القاعة لأن خالتي فيها .

كاميل :

– لماذا وبختك خالتك ؟

صوفي :

– لا لشيء ، هي هكذا دوماً .

مادلين :

– هيا إلى الحديقة .. لا أحد يزعجنا فيها ، هيا معنا يا مرغويت .

صوفي :

– من هذه الصغيرة ؟ لم أرها من قبل ! .

كاميل :

– إنها صديقتنا . لم تريها حين زرناك ، لأنها كانت مريضة ، واسمها مرغويت .

وحكت لها مادلين كيف تعرفوا على مرغويت وأمها ، فعطفت عليها صوفي وقبلتها وذهبن جميعاً إلى الحديقة .

صوفي :

– ما أجمل هذه الأزهار ، إنها أجمل من أزهاري .

من أين حصلت على هذا البنفسج وتلك الورود ؟ ما أطيب رائحتها ؟

مادلين :

– إن السيدة رسبورغ أهدتنا كل هذه الأزهار .

مرغويت :

– انتبهي يا صوفي .. أنت تدوسين على شجرة الفريز .. عودي إلى الوراء .

صوفي :

– اتركيني أشم هذه الورود .

مرغويت :

– ولكنك تدوسين على شجرة الفريز .

صوفي :

– دعيني أيتها الحمقاء .

وكانت مرغريت قد أمسكت بقدم صوفي تمنعها من المشي ، فرفستها بقدمها ، فتدحرجت الصغيرة بعيداً عنها .

سرعان ما جرت مادلين وكاميل إلى صوفي وصفعتاها صفعة قوية . وبدأت صوفي تصرخ ومرغريت تبكي وتحاول مادلين إسكاها ، وكانت كاميل محمرّة من الخجل .

وجرت السيدات الثلاث ، وبدأت السيدة فيشني بأن ضربت صوفي .

صوفي :

– هذه ثاني واحدة ، ثاني واحدة .

السيدة فيشني :

– ثاني أي شيء يا حمقاء ؟

صوفي :

– ثاني صفعة ألقاها .

السيدة فيشني :

– ولماذا تكذبين ؟

كاميل :

– إنها لا تكذب ، لقد صفعتها فعلاً .

السيدة فلورفيل :

– ماذا تقولين يا كاميل ؟ أنت الفتاة الطيبة تصفعين ضيفتك صوفي التي جاءت لزيارتك ؟

كاميل :

– نعم يا ماما .

السيدة فلورفيل :

– ولماذا فعلت هذا ؟

كاميل :

– لأنها .. لأنها ..

ولكن صوفي نظرت إليها تتوسلها فتابعت كاميل :

– لأنها داست فوق شجرة الفريز .

مرغريت :

– بل لأنها ضربتني ودافعت كاميل عني .

ورأت السيدة فلورفيل أن هناك شيئاً ما بين الفتاتين قد حدث ولا تريدان إحراج السيدة فيشني ولا صوفي ، فتوجهت إلى كاميل وقالت لها :

– اصعدي إلى غرفتك ولا تنـزلي منها لأنك محرومة من العشاء ومن كل أنواع الحلويات .

وانفجرت كاميل بالدموع وقالت لصوفي :

– أرجوك أن تسامحيني ، فقد تسرّعت ولم أمسك أعصابي ولن أعود إلى ذلك ثانية .. أعدك .

لم تكن صوفي شريرة بطبعها فعانقت كاميل وهمست لها :

– لو أنك قلت لخالتي إني دفعت مرغريت لأشبعتني ضرباً بالعصا .

فضغطت كاميل على يدها ومضت إلى البيت باكية ، وبكت مرغريت ومادلين لبكائها .

قالت مرغريت لنفسها :

– صوفي هذه شريرة .. وقد تسببت بالحزن والألم لصديقتي كاميل وأنا أكرهها .

صعدت السيدة فيشني وصوفي إلى عربتهما ، ولم تكد تنطلق العربة بهما حتى بدأت خالتها تعاتبها وتوبخها ، ثم ارتفع صوت صوفي بالبكاء إذ جذبتها من شعرها .

وحكت مادلين ومرغريت للسيدة فلورفيل ما حدث في الحديقة وكيف تصرفت صوفي مع مرغريت .

قالت السيدة فلورفيل :

إن ما سمعته منكما يخفف من غضبي عليكما ، ولكنها ما تزال مخطئة لأنها لم تسيطر على أعصابها وصفعت طفلة أصغر منها جاءت لزيارتها ، وسوف أسمح لها بالخروج من غرفتها ، ولكنها محرومة من العشاء والحلويات .

وسارعت مرغريت ومادلين إلى كاميل لتزفا إليها نبأ الإفراج عنها ، فتحسرت ولم تفارقها الكآبة .

يجب القول إن لدى كاميل العاقلة المهذبة عيباً هو الشراهة ، فهي تحب الأشياء الحلوة وخاصة الفواكه ، وكان خالها قد أرسل إليهم بعض الدراق والعنب من باريس ، وحرمانها يُعَدّ عقوبة كبرى ، لذلك طفرت الدموع إلى عينيها .

قالت لها مادلين :

– هل أنت حزينة من أجل الفواكه .

كاميل :

– طبعاً .. فالكل سيأكلون الدراق والعنب إلا أنا .

مادلين :

– سأمتنع أنا عن أكل الدراق والعنب ، هل هذا يرضك ؟

كاميل :

– لا .. لا أريدك أن تحرمي نفسك من أجلي .

مادلين :

– لا ، لا يا أختي .. لن أستمتع بأكل شيء أنت محرومة منه .

عانقت كاميل أختها وشكرتها على صدق إحساسها ، وطلبت منها مادلين ألا تتحدث عن هذا القرار أثناء العشاء لأن أمهما لا تريد أن تتضامنا ضدها .

جاء وقت العشاء ، وكانت الفتيات الثلاث حزينات ، وكانت الحلوى هي الرز بالحليب الذي تحبه مادلين .

السيدة فلورفيل :

– مادلين ، أعطيني صحنك حتى أسكب لك شيئاً من الحلوى .

مادلين :

– شكراً يا أمي لن آكل منه .

السيدة فلورفيل :

– لن تأكلي منه وأنت تحبينه ؟

مادلين :

– لقد شبعت .

السيدة فلورفيل :

– لقد طلبت مني أن أزيدك بعض البطاطا ، وكنت جائعة منذ قليل .. فماذا حدث ؟

مادلين :

– لم أعد جائعة .. هذا كل شيء .

ونظرت السيدة فلورفيل إلى مادلين وهي محمرّة الوجنتين تتلعثم في كلامها ، فأدركت أن هناك شيئاً تخفيه البنات عنها ولكنها لم تشأ إحراجهن ، وأحضرت الخادمة سلّتي الفاكهة ، سلة من الدراق وأخرى من العنب ، فامتلأت عينا كاميل بالدموع لأن أختها حرمت نفسها من أجلها .

وألقت مادلين على السلتين نظرةَ اشتهاء ، ولكنها سيطرت على نفسها ، وحين سألتها أمها :

– هل تأكلين الدراق أم التفاح ؟

أجابتها :

– لا .. لن آكل الفاكهة .

فأصرّت السيدة فلورفيل :

– كلي على الأقل عنقوداً من العنب ، إنه رائع .

فأجابت مادلين :

– لا يا ماما .. أحس بالتعب .. سأذهب لأستريح .

فسألتها أمها بقلق :

– ألست مريضة ؟

– لا يا ماما .. أنا بصحة جيدة .. ولكن أحس برغبة في النوم .

ونهضت مادلين وقبّلت أمها ثم ذهبت إلى غرفتها .

وكانت السيدة فلورفيل تحسّ بشيء يُدبّر في الخفاء ولا تعرف ما هو .

قالت كاميل :

– آه .. ما أطيب أختي وما أرقّ إحساسها .

قالت السيدة فلورفيل :

– ما بها أختك مادلين ! ترفض أكل الحلوى وترفض أكل الفواكه وتذهب للنوم باكراً .

– إن أختي طيبة رقيقة القلب ، وقد حرمت نفسها من الحلوى والفواكه تضامناً معي ، وذهبت إلى النوم خوفاً من ألا تستطيع المقاومة أطول من ذلك .

ضحكت السيدة فلورفيل وقالت :

– تعالي معي نذهب إليها .

وصعدتا معاً إلى غرفة مادلين التي كانت تتأمل صورة أختها كاميل . قالت السيدة فلورفيل وهي تعانقها :

– إن كرمك وطيبة قلبك يمحوان خطأ أختك ، وقد سامحتها إكراماً لك ، وهذه هي الحلوى والفواكه جئت بها إليك لتأكليها مع أختك .

ودخلت إليزا في هذه اللحظة تحمل صينية مملوءة بالحلوى والعنب والدراق .

هبطت السيدة فلورفيل لتجالس السيدة رسبورغ وبقيت كاميل ومادلين مع إليزا ، وتناولت الثلاث ما في الصينية من حلوى وفواكه .

وحكت كاميل لإليزا عن كرم أخلاق أختها ، ثم حملت إليزا الصينية وخرجت . بعد قليل نامت الفتاتان متعانقتَيْن تحلمان بما حدث معهما طول النهار .

الفصل السادس

القنافذ

ذات يوم كانت كاميل ومادلين جالستين تقرآن في الحديقة حينما رأتا موغريت تجري إليهما وهي تصيح :

– كاميل ، مادلين ، تعاليا انظرا إلى القنافذ التي أمسكنا بها ، إنها أربعة : الأم وثلاثة أولاد .

وجرت الطفلتان سريعاً لرؤية القنافذ التي كانت داخل السلة .

كاميل :

– ولكننا لا نرى سوى كرة من الشوك لا رأس لها ولا أرجل .

مادلين :

– تكورت القنافذ على نفسها .. وأخفت رأسها وأرجلها .

كاميل :

– سنرى .. سأخرجها من السلة .

مادلين :

– ولكنها تشوّك .. فكيف ستفعلين ؟

كاميل :

– سترين .

أمسكت كاميل السلة وقلبتها ، وتناثرت القنافذ على الأرض ، وبعد لحظات بسط القنفذ الصغير جسمه وأخرج رأسه وبدأ يمشي ، وفرحت البنات ولكنهن لم يتحركن لئلا يفزع القنفذ ، ثم بدأت الأم تبسط جسدها وتمد رأسها ، وترددت قليلاً ثم أخرجت رأسها كله ، ونادت صغارها وهربت معها .

صرخت موغريت :

– القنافذ تهرب .. إنها تجري نحو الغابة .

وجاء الحارس وقال :

– ما كان ينبغي أن تخرجوها من السلة ، يصعب عليّ الإمساك بها الآن .

ولحق بالقنافذ التي كانت تجري مسرعة ولا يكاد يلحق بها ، وكادت تصل إلى قرب شجرة السنديان لتختبئ فيها ، حتى سُمِعَتْ طلقة وتدحرجت الأم ميتة .

ورأى الصغار أن أمهن توقفت فوقفن أيضاً .

كان الحارس الذي أطلق النار على الأم قد سارع إلى الإمساك بصغار القنافذ ورماها في جعبته ، وجرت كاميل ومرغويت ومادلين ، وصرخت فيه كاميل :

– لماذا قتلت هذه الأم المسكينة يا نيكوس الملعون ؟

مادلين :

– سوف يموت الصغار من الجوع الآن .

نيكوس :

– لا ، لن تموت من الجوع بل سأقتلها بيدي .

مرغويت :

– آه .. يا للصغار ! أرجوك لا تقتلها .

نيكوس :

– بل يجب أن أقتلها ! فالقنفذ حيوان مفسد يقتل الأرانب والطيور ، وهي ما تزال صغيرة ، ستموت بعد أمها .

كاميل :

– سأطلب من أمي أن تنقذ الصغار .

وجرت الفتيات إلى القاعة حيث تعمل السيدة فلورفيل والسيدة رسبورغ .

مادلين :

– ماما .. أرجوك أنقذي صغار القنافذ ، يريد نيكوس أن يقتلها بعد أن قتل أمها .

السيدة فلورفيل :

– ولماذا فعل هذا ؟

كاميل :

– اذهبي بسرعة .. إنه لا يصغي إلينا .. أنقذي الصغار .

السيدة رسبورغ :

– لا أفهم شيئاً مما تقولون .. مادلين اشرحي لي ما حدث .

مادلين :

– لقد قتل نيكوس أم القنافذ وسيقتل الصغار أيضاً ، وهو يزعم أن القنافذ تقتل الأرانب .

كاميل :

– وأظنه يكذب فالأرانب لا تأكل إلا الحشرات الضارة .

السيدة فلورفيل :

– ولماذا يكذب يا كاميل ؟

كاميل :

– لأنه يريد قتل هذه الصغار .

السيدة فلورفيل :

– هل تظنينه شريراً لأنه يريد قتل الصغار ؟ هل هو حاقد عليها ؟

كاميل :

– لا أدري ، قد أكون مخطئة ، ولكن أنقذي هذه الصغار اللطيفة .

السيدة رسبورغ :

– القنافذ اللطيفة ؟ هذا مستحيل ، ولكننا سنرى بأنفسنا ما يحدث ، وإذا أمكن إنقاذها أنقذناها .

وتوجهت السيدتان مع الفتيات الثلاث إلى طرف الغابة حيث تركن الحارس مع القنافذ ، فلم يجدن الحارس ولا القنافذ ، لقد اختفوا جميعاً .

كاميل :

– يا رب .. لا ريب أن نيكوس قد قتل هذه الصغار .

السيدة فلورفيل :

- هيا نتحقق من ذلك ، سنذهب إلى مسكن الحارس .

واقتحمنه دون استئذان .

مرغريت :

- أين القنافذ ؟ أين وضعتها ؟

كان الحارس يتغدّى مع زوجته فنهض ببطء وقال :

- لقد رميتها في البركة قرب المسكبة .

كاميل :

- آه هذا عمل غير صالح .. ماما لقد رماها في الماء .

السيدة فلورفيل :

- استعجلت يا نيكوس ، البنات يردن الاحتفاظ بها .

نيكوس :

- لا يمكن الاحتفاظ بها لأنها ستموت خلال يومين ، ومهما يكن فالقنافذ جنس شرير يجب إتلافه .

التفتت السيدة فلورفيل إلى الفتيات وقالت :

- أعتقد أن السيد نيكوس قد أدّى واجبه ، لأننا لا نعرف كيف نطعم هذه الصغار ، وكيف نرعاها ، وهي صغيرة جداً .

لم تجد الفتيات بداً من الرضوخ للأمر الواقع ، وإن كانت نفوسهن تحسّ بالشفقة على هذه القنافذ الصغيرة ، وانصرفن إلى دراستهن .

بعد قليل وصلت صوفي راكبةً حماراً وترافقها مربيتها ، وقد أعلنت السيدة فيشني أنها قادمة للعشاء وقد أرسلت صوفي قبلها .

صوفي :

- صباح الخير يا صديقاتي ، صباح الخير مرغريت .. لماذا تبتعدين عني ؟

مرغريت :

- لقد تسببت في معاقبة كاميل ، وأنا لا أحبك .

كاميل :

– اسمعي يا مرغريت .. أستأهل هذه العقوبة لأني فقدت أعصابي ، ويجب على الإنسان أن يسيطر على نفسه .

مرغريت :

– لقد غضبت من أجلي ، ولذلك أحبك .

وبدأت صوفي تحس بالغضب يتملكها ، ولكنها حينما رأت الحنان الذي تعامل به كاميل الطفلة الصغيرة ، اقتربت من كاميل وقالت لها والدموع تطفر من عينيها :

– كاميل ، إن مرغريت على حق وأنا المخطئة ، وقد بادرت إلى دفع مرغريت وأسقطتها أرضاً ، وأستأهل تلك الصفعة فأرجو أن تسامحاني ، ولن أعود إليها أبداً ، إني تعيسة ..

حينئذٍ سارعت مادلين ومرغريت وكاميل إلى صوفي وعانقنها وأمسكن بيديها ، وقلن لها :

– لا تبكي يا صوفي فنحن نحبك كثيراً وسوف نسليك ونخفف عنك أحزانك .

قالت صوفي وهي تجفّف دموعها :

– شكراً جزيلاً لكنّ يا صديقاتي .. سأحاول الاقتداء بكنّ فأكون وديعة طيبة الخلق أسيطر على تصرفاتي ، ولو كان عندي أم مثل أمكنّ لتغيرت حالتي ، ولكني فقدت حنان الأم وعطفها وليس لي أب يرعاني ويحوطني بعنايته ، وهذه خالتي لا توجهني إلى ما يجب عمله بل تضربني إن أخطأت .

قالت مرغريت :

– آه يا صوفي المسكينة .. آسفة لأني حقدت عليك .

قالت صوفي :

– لا تأسفي لأني تصرفت تصرفاً يستأهل الحقد والكراهية .

واستأذنت كاميل ومادلين من صوفي أن ينهيا وظائفهما المنـــزلية وسوف تنضمان إليها بعد نصف ساعة .

مرغريت :

– هل تأتين معي يا صوفي ، أنا ليس عندي وظائف .

صوفي :

– حسناً .. سنركض معاً .

مرغريت :

– سأحكي لك ما حدث لثلاثة من القنافذ وأمهن .

وحكت لها مرغريت ما حدث للقنافذ وهما تتمشيان .

صوفي :

– وأين رميتم هذه القنافذ ؟

مرغريت :

– في البركة قرب المسكبة .

صوفي :

– هيا نراها .. سنلهو كثيراً .

مرغريت :

– ولكن لا يجوز الاقتراب من الماء ، ماما منعتني من هذا .

صوفي :

– لا .. لا .. سوف نتفرج عليها من بعيد .

وأسرعتا إلى البركة ، فلم تريا شيئاً من بعيد فاقتربتا قليلاً .

صوفي :

– هذا واحد .. هذا واحد لم يمت ، إنه يتحرك .. اقتربي .

مرغريت :

– نعم ، إني أراه ، إنه يتحرك .. والآخران ماتا .

صوفي :

– ما رأيك أن نغطّسه في الماء أكثر حتى يموت ، إنه يقاسي .

مرغريت :

– معك حق ، هذا صغير بائس ، إنه يقترب منا .

صوفي :

– إليك عصا طويلة ، اضربيه على رأسه فيغطس .

مرغريت :

– لا .. لا أريد قتل هذا المسكين .. وماما لا تريدني أن أدنو من الماء .

صوفي :

– لماذا ؟

مرغريت :

– لأنه قد تنـــزلق قدمي وأغرق .

صوفي :

– لا خطر عليك من هذا .

مرغريت :

– لا يجوز عصيان ما تقوله الأم .

صوفي :

– أما أنا فلا أحد منعني من شيء ، لذلك سأغرق القنفذ .

واقتربت صوفي من الماء حذرة ، وضربت رأس القنفذ ضربةً قويةً بالعصا الممسكة بها ، فغاص في الماء برهة ثم طفا على سطحه وهو يتلوى .

فأعادت صوفي الضرب ثانية ولم تستطع أن تنال منه إلا إذا مدت ذراعها ، وحين هبطت العصا اختل توازنها وسقطت في الماء ، فأطلقت صرخة يائسة واختفت .

حاولت مرغريت أن تنقذها فمدّت إليها يدها ، فأمسكت صوفي بها وجذبت أعلى جسمها فوق الماء ، ثم مدت مرغريت يدها الثانية فأمسكت بها صوفي ، لكنها كانت أثقل من مرغريت فسقطت في الماء .

ولم تفقد مرغريت ثقتها بنفسها ، فقد تذكرت أن السيدة فلورفيل تقول : إذا مسَّ أحد بقدميه الأرض فما عليه إلا أن يضربها بقدميه ليطفو إلى أعلى .

وضربت الأرض ضربة قوية ، فوجدت نفسها فوق سطح الماء ، فأمسكت بعمود قريب وخرجت من البركة .

لم تعد ترى صوفي ، فجرت والماء يقطر منها وهي تصيح :

– النجدة .. النجدة ..

وسمع صوتها بعض الفلاحين فسارعوا إليها ، صرخت :

– أنقذوا صوفي .. أنقذوا صوفي ، إنها في البركة .

جاءت إحدى الفلاحات بمذراة طويلة ، وأمسكت بها ثوب صوفي الذي يطفو على سطح الماء وجذبتها بصعوبة ، لقد نسيت مرغريت في غمرة خوفها على صوفي الخطَر الذي واجهته بنفسها ، ولم تعد تفكر إلا في إنقاذها والدموع تتقاطر من عينيها ، وهي تدعو الفلاحين إلى إنقاذها ، وجرت كاميل ومادلين لسماع الضوضاء ، وأضافتا إليها بكاءهما وصراخهما .

وسمعت السيدتان هذه الضجة العارمة فأسرعتا إلى البركة ، وأطلقتا صرخة عالية حينما رأتا مرغريت على هذه الحال .

وهتفت السيدة رسبورغ :

– ماذا جرى لك يا بنيتي ؟ لماذا تصرخين ؟

– ماما .. ماما .. صوفي تغرق .

قالت لها تهدئها :

– لا تخافي .. لا تخافي .. لقد أُنقذتْ صوفي .

– ومن أنقذها ؟ لم أر أحداً بجانبنا !

– أسرعت إليها الفلاحات وأنقذنها .

وحين تأكدت مرغريت من نجاة صوفي انهارت على الأرض ، فحملتها أمها ودخلت بها إلى البيت ، وبعد أن جففت شعرها وبدلت ثيابها طلبت منها أمها أن تروي لها ما حدث .

فأرجعت سبب سقوط صوفي في الماء إلى إصرارها على ضرب القنفذ والاقتراب من البركة على الرغم من تحذيرها لها .

قالت لها أمها وهي تعانقها :

– أرأيت كيف أن الماء شيء خطير ؟ وكيف كنتُ على حق حين منعتك من الاقتراب من البركة ، ولكنك تصرفت بحكمة وشجاعة .. فهيا نرى كيف أصبحت صوفي .

حملت السيدة فلورفيل صوفي تصحبها كاميل ومادلين وإليزا فجففت شعرها وألبستها ثياب كاميل ، حينئذٍ انفتح الباب ودخلت السيدة فيشني واندفعت قائلة :

– كيف تجرؤين على الاقتراب من البركة وتوسيخ ثيابك ؟ وهل تدفعك حماقتك إلى هذا الحد ؟ انتظري حتى أريك كيف تكونين أكثر حذراً في المستقبل .

وقبل أن يتمكن أحد من اعتراضها سحبت من تحت شالها قضيباً غليظاً وانهالت عليها ضرباً ، وعلى الرغم من بكاء الصغيرة وبكاء مادلين وكاميل وتوسلاتهما وتدخل السيدة فلورفيل وإليزا ، فإنها لم تتوقف حتى تكسَّر القضيب بيديها ، فرمته وخرجت من الغرفة ، ولحقت بها السيدة

فلورفيل لتعبّر لها عن سخطها على هذه العقوبة الظالمة القاسية ، فأجابتها السيدة فيشني :

– صدقيني يا سيدتي .. إن العصا خير وسيلة لتربية الأولاد ولا أعرف وسيلة سواها .

وتمنت السيدة فلورفيل أن تقطع علاقتها بهذه المرأة القاسية ، ولكنها أشفقت على صوفي لئلا تحرمها من دعمها أمام خالتها ، فناقشت معها مساوئ العقوبة الجسدية وتأثيرها على الأطفال ، ولكنها اصطدمت بقلبها المتيبس وعقلها المتجمد وصبرت عليها رغماً عن ذلك .

حينما دخلت السيدة روسبورغ ومرغريت الغرفة وجدتا كاميل ومادلين تبكيان ومعهما صوفي وهي تشهق بالبكاء والألم ، وقد ترك القضيب على جسدها الصغير آثاراً زرقاء وحمراء ، سألتهما مرغريت والدموع بعينيها :

– لماذا تبكيان ؟ وماذا أصاب صوفي ؟

– إن خالتها قد أشبعتها ضرباً .. يالصوفي المسكينة !

والتفت الفتيات حول صوفي يواسينها ويخففن عنها آلامها .

وروت إليزا للسيدة روسبورغ كيف أن السيدة فيشني لم تر في حادثة صوفي سوى ثوبها الموسخ ولم تنتبه إلى أن الصغيرة قد كانت على قيد شَعْرةٍ من الموت ، فتأثرت السيدة روسبورغ أشد التأثر ولكنها لم تقطع علاقتها بالسيدة فيشني للأسباب المذكورة .

كم بذلت كاميل ومادلين ومرغريت من جهد ليكنّ لطيفات مع السيدة فيشني على مائدة العشاء ! ولم تكن صوفي المسكينة لتجرؤ على الكلام أو رفع عينيها عن صحنها . وبعد العشاء خرجت البنات للّعب في الباحة ، وحين انصرفت السيدة فيشني وعدت بأن ترسل إليهم صوفي دوماً لترفه عن نفسها مع البنات .

وقالت السيدة فلورفيل :

– ما دمت مصرة على استقبال هذه المخلوقة التعيسة فإنه يسعدني أن أتخلص منها أطول وقت ممكن ، فهي تفسد علي بسوء أخلاقها كلّ زياراتي للجيران ، إلى اللقاء أيتها السيدات .. واصعدي أنت يا حمقاء .

وضربت بيدها قفا صوفي .

بعد أن انطلقت العربة ، لم تشأ كاميل ومادلين أن تلعبا لشدة حزنهما ، ودخلتا إلى القاعة تفكران مع السيدة روسبورغ بطريقة يخلّصن بها الصغيرة صوفي من يدي خالتها الشريرة ، أما مرغريت فكانت قد ذهبت إلى النوم منذ زمان طويل ، وذهبت كذلك كاميل ومادلين إلى النوم وهما تفكران بآلام صوفي وتحمدان الله على أنه وهبهما أماً عطوفاً .

الفصل السابع
الدمية المبللة

ذات يوم نظمت السيدة فلورفيل لعبة يا نصيب بين البنات ، وربحت صوفي مجموعة من الأقلام الملونة والكتب المصورة ، وربحت كاميل مكتباً مع مائة صورة للحيوانات وما يلزم للرسم والتلوين ، وربحت مادلين أربعين قصة وعلبة فيها أدوات الخياطة ، وأما مرغريت فربحت دمية جميلة من الشمع وملابس كاملة لها ، ونادت كاميل ومادلين لتريا الدمية وتلعبا معها ، فقضين ذلك اليوم في العناية بالدمية وتبديل ملابسها وتهيئة سريرها .

بعد الظهر من ذلك اليوم نادتهن السيدة فلورفيل :

– كاميل ، مادلين ، مرغريت ، أسرعن ، سنقوم بنـــزهة .

كاميل :

– أسرعي مرغريت .. اتركي الدمية وتعالي معنا .

مرغريت :

– لا .. سآخذ الدمية معي .. أريدها أن تبقى معي دوماً .

مادلين :

– إذا أخذتها معك حيث تذهبين فسوف تتسخ .

مرغريت :

– سأحملها ولا أجعلها تتوسخ .

كاميل :

– دعيها تأخذها معها يا مادلين ، سترى أن الدمية تُعيقها عن الجري .

وأصرت مرغريت على أخذ دميتها معها وأسرعن إلى السيدة فلورفيل .

سألتها كاميل :

– أين سنذهب يا ماما ؟

– إلى طاحون الغابة .

وظهر الأسف على وجه مرغريت لأن الطاحون بعيد والدمية ثقيلة على ذراعيها الصغيرتين .

حينماوصلن إلى منتصف الطريق خشيت السيدة فلورفيل أن تتعب البنات ، فجلست تحت شجرة وطلبت منهن الاستراحة قليلاً ، ثم أخذت كتاباً من جيبها وجلست مرغريت بجانبها ، وأما كاميل ومادلين فكانتا تجريان هنا وهناك تقطفان الأزهار وتجمعان الفريز .

هتفت مادلين :

– كاميل .. تعالي بسرعة هنا شجرة مملوءة بالفريز .

ونادت كاميل مرغريت :

– مرغريت تعالي بسرعة لتقطفي الفريز .

وسارعت مرغريت لتقطف الفريز مثل صديقتيها ولكن الدمية ضايقتها فهي لا تستطيع حملها وقطف الفريز معاً .

فهمست :

– ماذا أفعل يا رب بهذه الدمية المزعجة ، فلا أستطيع الجري ولا قطف الفريز ، سأضعها تحت شجرة السنديان هذه فوق العشب .

وضعت الدمية تحت شجرة السنديان وانطلقت تجري خفيفةً تجمع الفريز .

بعد ربع ساعة نظرت السيدة فلورفيل إلى السماء فرأتها مغطاة بالسحب ، فطوت كتابها ونادت البنات :

– بسرعة .. بسرعة يا بنات ، سنعود إلى البيت فالعاصفة تقترب ، لنسرع قبل أن يسقط المطر .

أسرعت الفتيات يحملن الفريز ، وقدمنه إلى السيدة فلورفيل .

السيدة فلورفيل :

– ليس عندنا الوقت لأكل الفريز ، احملنه معكن ، فالسماء قد اسودت بالسحب ، وهذا الرعد يقصف .

مرغريت :

– آه .. يا رب ! إني خائفة .

السيدة فلورفيل :

– لماذا تخافين ؟

مرغويت :

– أخاف من الرعد وأخشى أن يسقط فوقي .

السيدة فلورفيل :

– لا تخافي من الرعد فالله قد خلق الطبيعة وسخّرها لنا ، وما الرعد سوى اصطدام الغيوم قبل هطول المطر ، وأنت تعلمين أن المطر ضروري لحياة الإنسان والحيوان والنبات .

مرغويت :

– ولكن صوته مخيف .

مادلين :

– لقد اشتدت الريح .

السيدة فلورفيل :

– إنها الريح التي تسبق العاصفة ولن تمر عشر دقائق حتى تمر علينا ، فلنسرع .

كانت العاصفة أسرع منهن ، فقد بدأت بزخّات من المطر ، ثم سقطت قطرات ثقيلة واشتدت قوة الريح فأطارت الأوراق اليابسة وحركت أغصان الأشجار ، وقلبت البنات تنوراتهن على رؤوسهن وهن ضاحكات من عصف الريح التي تنفخ في التنورات كما تنفخ في أشرعة السفينة ، وكن يأملن أن يبلل المطر أجسامهن ، ولكنهن وصلن بسرعة قبل أن يهطل البَرَد الذي يلسع الوجوه لسعاً .

حين وصلن إلى القصر قالت لهن السيدة فلورفيل :

– هيا .. لتبدل كل واحدة منكنّ ملابسها وتجفف شعرها قبل أن تصاب بالبرد أو بنـــزلة صدرية .

وصعدت إلى غرفتها لتبدل ملابسها المبللة .

لم يكن ممكناً الخروج بقية المساء ، فالمطر ينهمر بغزارة والبنات يلعبن داخل البيت ، وشاركتهن السيدة فلورفيل

والسيدة رسبورغ ألعاهن حتى الساعة الثامنة ، وحان وقت نوم مرغريت ، وتعبت مادلين وكاميل من اللعب فتناولت كل منهما كتاباً تقرؤه بانتباه .

حينئذٍ ظهرت مرغريت تبكي وهي حافية القدمين لابسة قميص نومها ، فرمت مادلين وكاميل الكتابين وهرعتا إليها ، وكذلك فعلت السيدة فلورفيل والسيدة رسبورغ تتساءلان عن سبب بكائها .

كانت الدموع تمنع مرغريت من الجواب ، فتفحصت أمها يديها وقدميها وكل جسمها لتتأكد من أنها غير مصابة بالجروح ، ولم تعرف سبب بكائها ، ثم استعادت مرغريت أنفاسها وهي تقول بشكل متقطع :

– دميتي .. تركتها هناك تحت الشجرة .

وتساءلت السيدة رسبورغ :

– دميتك الجديدة تحت الشجرة .. كيف هذا ؟

– أخذتها معي للنـــزهة .. وأجلستها تحت شجرة السنديان لأنها تضايقني في جمع الفريز .. وحين فاجأتنا العاصفة هربنا بسرعة وخفت من الرعد فنسيتها تحت الشجرة .

– لعل الشجرة تحجب عنها المطر ، ولكن لماذا أخذتها معك ؟ لقد قلت لك دائماً إن الدمية تضايق حينما نكون في نزهة .

قالت مادلين :

– لقد نصحناها ولم تسمع كلامنا .

قالت الأم :

– أرأيت كيف يعاقب الله الشخص العنيد ؟ لقد شاء الله أن تنسيها وتقضي الليلة قلقة عليها ، لعل المطر والبرد قد أفسداها ، أو بعض الحيوانات قد مزقتها أو سرقها أحد العابرين .

قالت مرغريت جزعة :

– أرجوك يا ماما .. أرسلي أحد الخدم ليأتيني بها ، سأصف له مكان الشجرة فلا يخطئها .

– كيف تريدين أن أرسل أحد الخدم المساكين في ظلام الليل والعاصفة على أشدها ؟ قد يصيبه البرد أو يهلكه ذئب ، أهذا ما يأمر به قلبك الرحيم ؟!

– ولكن دميتي ، دميتي البائسة .. ما مصيرها ؟ سيبللها المطر وتوسخها العاصفة أو تنسفها الريح .

– يا حبيبتي إن ما أصابك من عمل يديك ، ولكني مشفقة على تلك الدمية .. وأرجو من الله أن نجدها غداً على أحسن حال ، ولا نستطيع أن نفعل شيئاً الآن .

ذهبت مرغريت إلى غرفتها مطرقة الرأس ، وقد عزمت على ألا تنام ، وبكت عدة دقائق ثم غلبها النعاس ولم تستيقظ إلا صباح الغد .

كان الجو رائعاً .. هبطت مرغريت من سريرها لترتدي ملابسها و تجري بسرعة لإحضار دميتها .

بعد أن غسلت يديها ووجهها ومشطت شعرها وتناولت فطورها كان الجميع بانتظارها للذهاب إلى الغابة بحثاً عن الدمية ، وهتفت البنات :

– هيا يا ماما .. لنذهب ، نحن مستعدات .

– هيا .. لنسرع الخطا .. فالدمية قد أمضت ليلة سيئة تحت المطر .

كان الجميع يحث خطاه للوصول إلى الغابة ، وقد سيطر عليهن الفضول لرؤية الدمية ، وقلب مرغريت يزداد خفقاناً كلما اقتربت من الغابة .

قالت :

– أرى من هنا شجرة السنديان التي تنام الدمية تحتها .

وبعد دقائق وصلن إلى الشجرة ، فلم يجدن للدمية أثراً ، ونظرت مرغريت إلى صديقتيها مذهولة ، وسألتها أمها :

– هل أنت متأكدة من أنك تركتها هنا ؟

– طبعاً يا ماما .

قالت مادلين :

– وهذا دليل على أنها كانت هنا .

والتقطت من الأرض فردة حذاء الدمية المصنوعة من الحرير الأزرق ، أمسكت مرغريت بفردة الحذاء وتأمّلتها ثم جعلت تبكي ، ولم ينطق أحد بحرف .

اتخذت السيدتان طريق العودة تتبعهما البنات والكل يتساءل :

– ماذا جرى للدمية ؟ ومن أخذها ؟ قد يكون المطر بللها أو وسخها ولكنه لا يجرفها ! والذئاب لا تأكل الدمى .

حين وصلن إلى القصر كانت الكآبة تعلو وجوههن ، وأما مرغريت فصعدت إلى غرفتها وجمعت ملابس الدمية وحوائجها وجعلتها في درج واحد ، ثم أغلقته بالمفتاح ومضت به إلى كاميل وقالت لها :

– خذي ! هذا مفتاح طاولتي ، احفظيه معك وحين يكون معي المال الكافي سأشتري لعبة مثلها وألبسها ثيابها .

ولم تجبها كاميل بل تناولت المفتاح وقبلتها على جبينها وهي تهمس :

– مرغريت البائسة .

وأما مادلين فلم تقل شيئاً ، وكانت تفكر والحزن بادٍ على وجهها ، وفجأة أشرق وجهها فنهضت وأسرعت إلى خزانتها وأخذت منها حصّالتها ثم رجعت إلى مرغريت قائلة :

– خذي يا عزيزتي اشتري دمية جديدة ، كنت قد وفرت خمسة وثلاثين فرنكاً لأستكمل مجموعة كتبي ، وأحمد الله لأني لم أفعل ، ولا أحتاجها ، اشتري بها دمية مثل دميتك المفقودة .

احمر وجه مرغريت فرحاً وقالت :

– شكراً لك يا مادلين .. ما أطيب قلبك ! سأطلب من ماما أن تشتري لي دمية جديدة .

وجرت إلى السيدة رسبورغ التي وعدتها بأن تشتري لها دمية جديدة حينما تسافر إلى باريس .

الفصل الثامن
جانيت السارقة

تلقت مادلين ما تستحقه من المديح على كرمها وتضحيتها ، وكانت قد مرت ثلاثة أيام منذ اختفاء الدمية ومرغريت تنتظر بفارغ الصبر ذهاب أحد إلى باريس ليجلب لها الدمية الموعودة ، وكانت أثناء ذلك تلهو بدمية مادلين .

الجو حار والبنات قد جلسن تحت ظلال الأشجار الوارفة : مادلين تقرأ وكاميل تضفر للدمية إكليلاً من الأعشاب على حين تمشط لها مرغريت شعرها . ومرت بجانبها سوزان الخبّازة تحمل إلى المطبخ رغيفي خبز ، فتوقفت أمامها وهي ترقب الدمية بانتباه ثم قالت :

– إن دميتك جميلة جداً يا آنسة .

مرغريت :

– ألم تري أجمل منها يا سوزان ؟

سوزان :

– رأيت أجمل من دميتك هذه البارحة .

مرغريت :

– أجمل من هذه ؟ وأين يا سوزان ؟

سوزان :

– بالقرب من هنا ، ولها ثوب بنفسجي حريري جميل .. هي عند جانيت .

مرغريت :

– جانيت بنت صاحب الطاحون ! ومن أعطاها هذه الدمية ؟

سوزان :

– لا أعرف .. هي عندها منذ ثلاثة أيام .

وتبادلت الفتيات الثلاث نظرات الدهشة وقد دار بخاطرهن أن دمية جانيت ليست سوى دمية مرغريت .

كاميل :

– وهل لهذه الدمية قبقاب ؟

سوزان :

– لا ، بل في قدمها فردة حذاء من حرير أزرق ، وقدمها الأخرى حافية ، وعلى رأسها قبعة صغيرة من القش وفيها ريشة بيضاء .

مرغريت :

– هذه دميتي .. دميتي المسكينة التي تركتها منذ ثلاثة أيام تحت شجرة السنديان حينما بدأت العاصفة ولم أعثر عليها .

سوزان :

– قالت لي جانيت إنها أُهديت لها ، ولكنها كتمت سرها لئلا تُحسد عليها .

كاميل :

– هيا نخبر أمي بما سمعنا .

ودخلت كاميل ومادلين ومرغريت القاعة حيث كانت السيدة فلورفيل تكتب والسيدة رسبورغ تعزف على البيانو .

مادلين :

– ماما هل تسمحين لنا بالذهاب إلى الطاحون ؟ إن دمية مرغريت لدى جانيت ويجب أن نستعيدها .

السيدة رسبورغ :

– هذا جنون ! كيف يمكن لدمية مرغريت أن تكون في بيت جانيت ؟

مادلين :

– ولكن سوزان رأتها ، وجانيت طلبت منها أن تكتم سرها .

السيدة فلورفيل :

– لابد أن تكون دمية ثمنها خمسة وعشرون فرنكاً ، ثيابها من الورق أهديت إلى جانيت ، ووجدتها سوزان رائعة ، لأنها لم تر في حياتها دمية أجمل منها .

سوزان :

– نعم يا سيدتي إنها دمية جميلة .

السيدة رسبورغ :

– كيف هو فستانها ؟

سوزان :

– من الحرير البنفسجي .

السيدة رسبورغ :

– وقبعتها ؟

سوزان :

– من القش وفيها ريشة بيضاء .

السيدة رسبورغ :

– هل قالت لك من أعطاها هذه الدمية ؟

سوزان :

– لم تذكر لي اسمه .

السيدة رسبورغ :

– وهل عندها هذه الدمية منذ زمان طويل .

سوزان :

منذ ثلاثة أيام ، وقالت إنها جلبتها من المدينة ليلة العاصفة .

السيدة رسبورغ :

– شكراً يا سوزان ، خذي هذه الحلوى لتأكليها في الطريق .

وانصرفت سوزان فرحة ، فقالت السيدة رسبورغ :

أظن أن دمية مرغريت لدى جانيت فعلاً ، لنذهب جميعاً إلى هناك ، هيا لنسرع إلى الطاحون .

واستعدت البنات إلى الذهاب خلال ثلاث دقائق لأنهن كنّ متشوقات لاسترجاع الدمية ، وبعد نصف ساعة وصل

الجميع إلى الطاحون ، وطلبت السيدة رسبورغ منهنّ السكوت وقالت :

– لاتذكرن شيئاً عن الدمية يا بنات ، ابقين بجانبي ولا تتكلمن إلا إذا رأيتن الدمية .

ودخلن إلى الطاحون وكلهن رغبة في الحديث وسؤال جانيت عن الدمية ، ولكنهن كتمن هذه الرغبة كما طلبت منهن السيدة رسبورغ .

فتح صاحب الطاحون الباب وحياهن أجمل تحية وقدم لهن الكراسي ، وكانت البنات قلقات فوق كراسيهن فأشارت إليهن السيدة رسبورغ بالهدوء .

السيدة رسبورغ :

– كيف حالك يا سيد ليونار ؟

الطحان :

– حمداً لله وشكراً لسؤالك عني .

السيدة رسبورغ :

– وأين بنتك جانيت ؟

السيد ليونار :

– لا أدري ، ربما كانت في الطاحون .

السيدة رسبورغ :

– تريد البنات التعرف عليها ، نادها !

السيدة ليونار تنادي :

– جانيت .. جانيت .. أظنها لا تجرؤ على الدخول .

السيدة رسبورغ :

– ولماذا لا تجرؤ ؟

السيدة ليونار :

– هي خجولة لأنه لا يزورنا كثير من الناس .

السيدة رسبورغ :

– أريد أن أراها ، وإذا كانت عاقلة فسوف أجلب لها قميصاً من الحرير ومئزراً ليوم الأحد .

بحثت الأم عن جانيت وجاءت بها .

السيدة ليونار :

– تعالي أيتها الخجولة .

جانيت :

– لا أريد ، أنا خائفة .

السيدة ليونار :

– ولماذا تخافين ؟ لن تأكلك هذه السيدة .

وما إن تركت يد أمها حتى هربت وذهبت إلى غرفتها ، وغضبت أمها وخافت أن يضيع منها القميص والمئزر ، فنادت جانيت وهددتها :

– تعالي أيتها البلهاء وإلا أشبعتك ضرباً .

و تدخلت السيدة رسبورغ قائلة :

– لا تجبريها على المجيء ، سأذهب لأراها ، إني أعرف البيت .

دخلت السيدة فلورفيل والسيدة رسبورغ الغرفة ، ووجدتا جانيت مختبئة وراء كرسي ، فجذبتها السيدة فلورفيل وأجلستها على الكرسي وقالت لها :

– لماذا تختبئين يا جانيت ؟ كنت من قبل تهرعين لاستقبالي حين آتي إلى الطاحون .

فأطرقت جانيت برأسها ولم تتكلم .

وسألتها السيدة فلورفيل :

– أين وجدت الدمية الجميلة منذ ثلاثة أيام ؟

جانيت :

– سوزان كذابة ، ليس عندي دمية ، ولم أتكلم مع أحد .

السيدة فلورفيل :

– وكيف عرفت أن سوزان هي التي تكلمت ؟

جانيت :

– لأنها تكرهني ، وقد روت لك الأكاذيب .

السيدة فلورفيل :

– ولماذا تتهمين سوزان وهي لم تذكر اسمك ؟

جانيت :

– لا تصدقي سوزان ، لم يعطني أحد دمية ، وليس عندي دمية .

السيدة فلورفيل :

– كلما تكلمت لاحظت أنك تكذبين ، هل تخافين أن آخذ منك الدمية التي وجدتها في الغابة يوم العاصفة ؟

جانيت :

– لست خائفة من شيء ، ولم أجد دمية تحت شجرة السنديان ، وليس عندي دمية مرغريت .

السيدة فلورفيل :

– كيف عرفت أنها دمية مرغريت ، وأنها كانت تحت السنديانة ؟

حين لاحظت جانيت أنه قد ضُيّق عليها الخناق بدأت تبكي وتحاول الابتعاد ، وتركتها السيدة فلورفيل وبدأت تفتش الغرفة ، ففتحت الخزانة والصندوق فلم تجد شيئاً .

ثم رأت أن جانيت واقفة قرب السرير ، فأطلت تحته ورأت الدمية ، فطلبت من أم جانيت أن تأتي بها ، فأطاعت الأم وهي ترتجف ، وأعطت الدمية للسيدة فلورفيل التي قالت لها :

– هل تعرفين أن لدى ابنتك هذه الدمية ؟

– لو كنت رأيتها لأمرتها أن تأخذها إلى القصر لأنها دمية الآنسة مرغريت .

ثم التفتت إلى ابنتها :

– أيتها المخلوقة الشريرة ، أيتها السارقة البشعة ، سأريك كيف تمدين يدك إلى أشياء الناس ، ولا تكتفين بهذا بل تكذبين أيضاً .

وتوسلت إليها جانيت ووعدتها بألا تعود إلى السرقة ، ولكن الأم صفعتها صفعة شديدة ، وخشيت السيدة فلورفيل أن تفقد الأم أعصابها فتؤذي ابنتها فحاولت تهدئتها .

أعطت السيدة فلورفيل الدمية لمرغريت وودعت السيدة ليونار وخرج الجميع ، ولكنهنّ سمعن صوت جانيت وهي تستغيث طالبة العفو من أمها ، فشعرن بالحزن لهذه الصغيرة وقضين النهار كله كئيبات .

الفصل التاسع

زيارة بيت صوفي

بعد حادثة الدمية تلقت كاميل من صوفي رسالة تدعوها فيها إلى زيارتها ، وكانت مملوءة بالأخطاء الإملائية ، ولكنها كانت فتاة طيبة فلم تطلع عليها مادلين أو مرغريت ، وذهبت إلى أمها .

كاميل :

– ماما .. كتبت صوفي إلي تقول إن السيدة فيشني تدعونا إلى العشاء لديها غداً .

السيدة فلورفيل :

– آه ، هذا مؤسف .. هل تهمك هذه الزيارة يا كاميل ؟

كاميل :

– نعم يا ماما ، لأن صوفي فتاة بائسة .

السيدة فلورفيل :

– هذا كرم منك يا كاميل لأنها سببت لك المتاعب مرتين .

كاميل :

– ولكنها اعتذرت بعدئذ .

السيدة فلورفيل :

– حسناً جداً ، جاوبيها بأننا سنذهب غداً .

كتبت كاميل إلى صوفي ما يلي :

(عزيزتي صوفي .

إن والدتي والسيدة رسبورغ ستأتيان للعشاء غداً وسنأتي معهما ، ويسعدنا القدوم إليكم ، ولن نرتدي ثيابنا الجديدة حتى نلهو على راحتنا ، إلى اللقاء مع تحياتي .

كاميل فلورفيل) .

وانشغلت الفتيات طول النهار بالتحضير لزيارة الغد ، أما مرغريت فأرادت أن ترتدي ثوباً من الموسلين الأبيض ،

وأما مادلين وكاميل فاختارتا ثوبين من الكتان البسيط ، وتدخلت السيدة رسبورغ وطلبت من مرغريت أن ترتدي ثوباً من الكتان ، وأرادت مرغريت أن تأخذ دميتها معها فقالتا لها :

– حذار يا مرغريت .. وتذكري السنديانة وجانيت .

مرغريت :

– ولكن لا يوجد غداً لا سنديانة ولا عاصفة ولا جانيت .

مادلين :

– ولكن قد تنسينها في مكان ما أو تسقط منك وتنكسر .

مرغريت :

– شيء مؤسف أن أترك دميتي في البيت دائماً ، فسوف تسأم ولا تخرج ولا يراها أحد .

ضحكت كاميل ومادلين ، وبعد لحظة تفكير شاركتهما مرغريت الضحك ، وعرفت أنه من الأسلم ترك الدمية في البيت .

الساعة الثانية من الغد كانت الفتيات يرتدين ملابسهن ، والساعة الثانية والنصف ركبن العربة ، وكانت السيدة فلورفيل والسيدة رسبورغ معهن ، وكان الجو صافياً .

لم تدم الرحلة أكثر من نصف ساعة لأن قصر السيدة فيشني عل بعد خمسة كيلو مترات ، واستقبلتهن السيدة فيشني ووراءها صوفي التي تخاف الاقتراب لئلا تنالها صفعة .

قالت ترحب بهن :

– أهلاً وسهلاً يا سيدات .. أهلاً وسهلاً بكن يا أوانس ، فعلتن خيراً إذ بكرتن بالمجيء حتى نستطيع الحديث طويلاً على حين تلعب البنات في الحديقة ، ولي طلب

عندكن .. ذلك أني سأذهب في رحلة طويلة وأرجو أن تحتفظن بصوفي عندكن عدة أسابيع .

فوجئت السيدة فلورفيل ولم تجب ، ودخلت السيدات إلى القاعة وبقيت البنات في الردهة .

سألت مرغريت :

– أين ستسافر خالتك ؟

– لا أدري ، ولكنها لا تمل من ضربي .. وسوف تتركني هنا وحدي وتذهب إلى إيطاليا .

قالت كاميل :

– وهل يؤسفك هذا ؟

– لا أدري .. خاصة وأني سأقيم عندكن ، ولن يصفعني أحد ، ولن أبقى وحيدة أياماً طويلة ، لا أعرف ماذا أفعل ، وكم جلست أبكي ساعات وساعات دون أن ينتبه إلي أحد أو يسمع صوتي إنسان .

وبكت صوفي ، فأحاطت بها البنات وهن يعانقنها ويخففن عنها حزنها ، وبعد عشر دقائق كنّ يجرين في الحديقة يلعبن ويتراكضن .

مضت ساعتان وهن يلعبن ، وكان الجو حاراً ، فرجعن إلى البيت .

قالت صوفي :

– كم أحس بالعطش !

مادلين :

– ولماذا لا تشربين ؟

صوفي :

– لأن خالتي تمنعني .

مرغريت :

– أتمنعك من شرب كأس ماء ؟

صوفي :

– نعم .. ولا يحق لي شرب الماء إلى وقت الغداء .

مرغريت :

– يا مسكينة ! ولكن هذا مخيف .

وسمعن صوت السيدة فيشني ينادي :

– صوفي .. صوفي .. تعالي إلى هنا حالاً ..

فأسرعت صوفي بالدخول إلى القاعة ، وظلت البنات الثلاث في الردهة خائفات وكلهن آذان صاغية .

السيدة فيشني :

– تعالي إلى هنا .. لماذا شربت عصير البرتقال ؟

صوفي :

– أي عصير يا ماما ! .. لم أشرب شيئاً .

السيدة فيشني :

– أيتها الكاذبة ، العصير الذي كان في غرفة النوم .

صوفي :

– أؤكد لك يا ماما أنني لم أدخل غرفتك ولم أشرب شيئاً .

السيدة فيشني :

– ألم تدخلي من النافذة ؟ ومَنْ ترك آثار أقدامه أمامها ؟

صوفي :

– أؤكد لك يا ماما ..

ولم تكد تنهي جملتها حتى هجمت عليها وأمسكت بأذنها وسحبتها إلى الغرفة المجاورة وانهالت عليها بالضرب حتى تعبت يداها ، فعادت إلى صديقاتها باكية محمرة الوجه منفوشة الشعر ، وأحست السيدتان بالإهانة لضرب الفتاة في حضورهما ، ولكنهما كتمتا غيظهما ولم تنطقا بحرف لئلا تبدل رأيها ، ولا تترك صوفي لديهما أثناء رحلتها إلى ايطاليا .

السيدة فيشني :

– إن ما حدث يدفعني إلى التخلص من صوفي ، ولكني أخاف ألا تستقبلاها في القصر فهي فتاة شريرة لا تطاق .

السيدة فلورفيل :

– لا أشك في ذلك ، وسأحاول أن أكون حذرة منها .

السيدة فيشني :

– ولكن ستدوم رحلتي شهرين أو ثلاثة .

السيدة فلورفيل :

– مهما طالت رحلتك فإنه يسعدني أن أقدم إليك هذه الخدمة .

السيدة فيشني :

– يا رب ! ما أطيب قلبك ، ولا أدري كيف أشكرك على هذا المعروف ، فهل أبدأ بالاستعداد للرحلة ؟

السيدة فلورفيل :

– طبعاً .. لقد وعدتك وسوف أفي بوعدي .

السيدة فيشني :

– سأسافر خلال ثلاثة أيام وستكون رحلة رائعة .

السيدة فلورفيل :

– سافري من الغد إذا شئت .

السيدة فيشني :

– ما أسعدني ! ويا لك من صديقة رائعة ، وسوف أرسل إليك صوفي بعد الغد .

السيدة فلورفيل :

– حسناً يا سيدتي ، سأكون في انتظارها .

السيدة فيشني :

– أنصحك يا سيدتي ألا تبالغي في تدليلها ، وأدّبيها بلا شفقة ، الضرب هو الطريقة الوحيدة لتربيتها .

كانت صوفي تبكي وهي واقفة مع صديقاتها ، وقد خُيّل إليهن أنها قد شربت العصير فعلاً ، ولكنها لا تريد الاعتراف بذلك خوفاً من العقاب .

قالت لها كاميل :

– يا صديقتي العزيزة ! لا بد أن العطش قد دفعك إلى شرب العصير ولكنك خفت من خالتك .

فأجابتها صوفي وهي تنتحب :

– ولكني لم أشرب العصير .. أقسم لك أني لم أشربه .

– ولكن ما حكاية آثار الأقدام التي تحدثت عنها خالتك ؟

– ليست آثار أقدامي ، ولن أكذب على أعزّ أصدقائي ، وأقسم لكنّ أني لم أشرب العصير .

حينئذٍ اهتمت الفتيات بصوفي وانصرفن إلى ترتيب هندامها :

فواحدة مشطت شعرها وأخرى غسلت وجهها ، ولكن ظلت عيناها منتفختين من البكاء ، وانطلقن إلى الحديقة ليقطفن بعض الأزهار ويتفرجن على ما ينبت فيها من خضار .

الفصل العاشر

زيارة المسكبة

كانت صوفي ما تزال حزينة وتمشي بصعوبة بسبب الضرب الذي انهالت عليها به خالتها ، فلم تذهب مع البنات لتقطف الأزهار بل دخلت إلى بيت البستانية الأم لوشيه .

الأم لوشيه :

– صباح الخير يا آنسة صوفي ، أراك في حالة سيئة ، هل أنت مريضة مثل بالمير ابنتي ، فقد التوت قدمها ولا تستطيع المشي .

صوفي :

– لا يا أم لوشيه ، لست مريضة .

الأم لوشيه :

– لقد ضربتك أمك إذن ، وهي حين تضرب لا تنظر بل تضرب ما وصلت إليه يدها : الرأس ، العنق ، الذراعين ، وكل شيء مباح لها . لم تجبها صوفي بل جعلت تبكي .

الأم لوشيه :

– لا تبكي يا بنيتي ! نحن نعلم أن حياتك ليست سعيدة ، وأقول لبالمير دائماً : (لو أني أضربك كما تضرب السيدة ابنتها لأطعتني دوماً) لو رأيتها كيف جاءت ، فستانها مملوء بالبقع ووجهها ويداها ملطخة بالدم لأنها سقطت من مكان مرتفع .

صوفي :

– كيف سقطت ؟

الأم لوشيه :

– لا أعرف كيف سقطت ، لم تذكر لي شيئاً ، ولا ريب أنها كانت تلعب في القصر لأنه لا يوجد رمل لدينا ، وعلى فستانها بقع حمراء كأنها العصير وليس لدينا عصير هنا .

صوفي :

– العصير ؟ أين وجدتِ العصير ؟

الأم لوشيه :

– لا أعرف ، لم تذكر لي شيئاً .

صوفي :

– هل أخذت العصير من غرفة خالتي ؟

الأم لوشيه :

– ربما فهي تذهب دوماً إلى القصر تحمل بعض الأعشاب الطبية للسيدة ، ولعلها شربت منه ولم تذكر لي شيئاً .

صوفي :

– لقد ضربتي خالتي لأنها ظنت أني شربت العصير ولم أشربه .

الأم لوشيه :

– هل من الممكن أن تكون بالمير هي التي شربته وعوقبت أنت بدلاً عنها ؟ بالمير تعالي إلى هنا !

بالمير :

– لا أستطيع يا ماما ، قدمي تؤلمني .

الأم لوشيه :

– سآتي إليك أنا والآنسة صوفي .

دخلتا غرفة بالمير التي كانت قدمها ممدودة ومنتفخة .

الأم لوشيه :

– قولي لي يا ملعونة كيف انتفخت قدمك هكذا ؟

فاحمر وجه بالمير ولم تجب .

الأم لوشيه :

– إذاً دخلت غرفة السيدة وهي غائبة عنها وشربت العصير ، وانسكب منه على فستانك ، وأردت أن هربي من النافذة فالتوت قدمك ، ولم تجرئي على إخباري لأنك تعلمين ما ينتظرك .

بالمير (باكية) :

– نعم يا ماما هذا صحيح ، ولكني نلت جزائي لأن قدمي تؤلمني وذراعي أيضاً .

الأم لوشيه :

– وهل تعلمين أن الآنسة صوفي قد عوقبت بدلاً عنك ؟ وهل تظنين أن الأمر سيمر بسلام ؟

صوفي :

– أرجوك يا سيدتي ، ألا ترين أنها نالت جزاءها وهذه قدمها تؤلمها ، وأرجو أن تسامحيها كما سامحتها أنا .

بالمير :

– آه .. كم أنت طيبة يا صوفي ! وآسفة لأنك عوقبت بدلاً عني ، اغفري لي يغفر لك الله .

اقتربت صوفي من سرير بالمير وعانقتها ، ومسحت الأم لوشيه دمعة سقطت من عينيها وقالت تخاطب ابنتها :

– أرأيت كيف تكون طيبة القلب أيتها الشريرة ؟ لقد عوقبتْ كأنها حاربت جيشاً من القطط وذلك بسببك ، وهل حقدتْ عليك ؟ لا .. أبداً ، بل تطلب لك العفو ، ولو كنت مكانها لضربتك ضرباً مبرحاً حتى تتعلمي السلوك المهذب ، فاذكري هذا دائماً وسيري في طريق الصواب أيتها الحمقاء .

سالت من عيني بالمير دموع الندم والأسف ، وفرحت صوفي لأنها جنبتها الضرب الذي قاست منه هي .

كانت الأم لوشيه لا تعاقب ابنتها إلا إذا ارتكبت ذنباً عظيماً ، وتحس بتأنيب الضمير إذا فعلت هذا ، لذلك فرحت لأن صوفي قد سامحتها ، وشكرتها من صميم قلبها . أثناء ذلك دخلت كاميل ومادلين ومرغريت وحكت لهن الأم لوشيه ما حدث وكيف كانت صوفي كريمة مع بالمير ، فعانقتها وقالت كاميل :

– يا عزيزتي صوفي .. ألا تحسين بالفخر لأنك جنبت بالمير العقوبة التي تستحقها ؟ ولأنك تغلبت على الرغبة في الانتقام ؟

فأجابت صوفي :

– آه يا عزيزتي كاميل .. أحس بالسعادة لأني جنبتها العقوبة ، ولم تكن لدي رغبة في الانتقام ، فأنا أعلم كم هو مؤلم الضرب الذي سينهال عليها وكأنه سينهال علي .

ودع الجميع الأم لوشيه وابنتها ، وأسرعن إلى البيت لأنه حان وقت الغداء .

الفصل الحادي عشر

الرحيل

كانت صوفي خائفة من الدخول إلى القاعة ، ورجت صديقاها أن يسبقنها في الدخول لئلا تلمحها خالتها ، وقد حاولت الاختباء وراءهن ولكن السيدة فيشني قد رأها وقالت لها :

– كيف تجرئين على العودة إلى القاعة ؟ وهل تتصورين أن أسمح لسارقة وكاذبة مثلك أن تأكل على طاولة واحدة معنا ؟

فأجابتها مادلين بجرأة :

– إن صوفي يا سيدتي بريئة ، ونحن نعرف الآن من شرب العصير .

– لا تصدقيها .. فهي تروي الأكاذيب ، وستكون عقوبتها الأكل وحدها في غرفتها .

قالت مرغريت :

– إن صوفي بريئة ، وبالمير هي التي شربت العصير وطلبت المعذرة من أمها التي أرادت أن تضربها .

مدام فيشني :

– هذه حكاية جميلة ، حكاية بالمير السارقة .

كاميل :

– لقد قالت مرغريت الحقيقة يا سيدتي ، لأن بالمير حين جلبت لك الأعشاب قفزت من النافذة بعد أن شربت العصير وسكبته على فستانها ، ثم التوتْ قدمها ، وقد سامحتها أمها بعد أن تدخلنا ورجوناها .. صوفي بريئة وطيبة القلب لأنها تحملت العقوبة وحدها .

السيدة رسبورغ :

– أرأيت يا سيدتي كيف عاقبت صوفي ظلماً ؟ ويجب تعويضها عن ذلك ، لقد ذكرتِ أنها تزعجك فهل تسمحين

لنا بأخذها معنا منذ الليلة ؟ وهكذا تحضِّرين نفسك للرحلة دون وجودها .

خجلت السيدة فيشني من خطئها الفادح تجاه صوفي ، ولم تستطع رفض طلب السيدة رسبورغ فتوجهت إلى صوفي قائلة :

– ستذهبين معهن هذا المساء وسأحضر لك حوائجك ، وأظنك مبتهجة لابتعادك عني ، ولأنك قاسية القلب ناكرة الجميل فلا أتوقع منك الشكر ، وأعفيك من الكتابة إليّ ، ولن أكلف نفسي عناء الكتابة إليك لتعرفي أخباري التي لا تهمك ، كما لا تعنيني أخبارك ، والآن أيتها السيدات أنتن مدعوات بعد رجوعي للاستماع إلى مذكراتي عن هذه الرحلة ، ولعلها تكون رحلة رائعة .

وانتقل الجميع إلى الطاولة لتناول العشاء ، وبعد أن تأكدت صوفي أنها ستذهب مع البنات هذا المساء ، وأن غضب خالتها قد انصرف عنها ، بدأت تأكل بشهية غير

عابئة بنظراتها ، وعاد الابتسام إلى مُحَيّاها وكادت تنسى حادثة الصباح .

بعد تناول العشاء مضت البنات مع صوفي إلى غرفتها حيث دميتها ولعبها وأشياؤها ، وجمعت كل هذا وجعلته في صرة واحدة .

وأما السيدة فلورفيل والسيدة رسبورغ فكانتا متشوقتين للعودة إلى القصر فطلبتا العربة .

مدام فيشني :

– ما يزال الوقت مبكراً للعودة ! لم تبلغ الساعة الثامنة .

السيدة فلورفيل :

– آسفة لمغادرتك مبكراً ، ولكني راغبة بالعودة قبل حلول الظلام .

السيدة فيشني :

– ولماذا تخافين من الظلام ؟ الطريق جميلة والقمر ساطع .

السيدة فلورفيل :

– إن مرغريت صغيرة لا تحتمل السهر وأظنها متعبة الآن .

مدام فيشني :

– هذه آخر ليلة نقضيها معاً ، فلتسهر مرغريت قليلاً .

السيدة رسبورغ :

– إني آسفة ولكن ابنتي تعودت على النوم في ساعة مبكرة .

جاءت الخادمة تعلن عن وصول العربة ، ونهضت البنات وسارعت صوفي إلى الباب وهي تحمل صرتها خوفاً من أن يسبقنها .

فودعتهن السيدة فيشني ثم نادت صوفي بصوت رهيب :

– تعالي ودّعيني أيتها الفتاة القاسية ، يظهر عليك الفرح لأني سأسافر ، فالفتيات المهذبات يبكين لفراق أمهن .

قالت مرغريت ببراءة :

– إني أبكي حين أغادر ماما ، وكذلك تفعل كاميل ومادلين لأن أمهاتنا لطيفات معنا ، وحين يكنّ قاسيات فلا أحد يبكي لفراقهن .

ارتجفت صوفي خوفاً ، وابتسمت مادلين وكاميل وعضت السيدتان شفاههما لئلا تضحكا ، وتطاير الشرر من عيني السيدة فيشني وتمنت لو تصفع مرغريت ولكنها لا تقدر على ذلك .

وتقدمت من صوفي وطبعت قبلة قاسية على جبينها وقالت :

– أراك تقولين أشياء رائعة لصديقاتكِ عني ، حذارِ ! سأعود ذات يوم .. الوداع .

حاولت صوفي أن تقبل يدها ولكن السيدة فيشني جذبت يدها بسرعة وهي غاضبة .

انتهزت الصغيرة هذه الفرصة وأسرعت بركوب العربة .

ودعت السيدتان مضيفتهما وتمنتا لها رحلة سعيدة ثم ركبتا العربة مع البنات ، وانطلقت العربة ، وحينما سمعن صوتاً ينادي : توقفوا .. توقفوا .. خافت صوفي أن تكون خالتها قد غيَّرت رأيها ، ولكن الخادم أنطوان هو الذي ينادي ، وحين وصل إلى العربة قال :

– آنسة صوفي .. لقد نسيت حوائجك ، وتقول لك السيدة إنك تستطيعين البقاء هذه الليلة إذا شئت .

قالت صوفي :

– سأرسل من يأخذها غداً .. لا حاجة لي بها .

وانطلقت العربة مرة ثانية ، وحين وصلت إلى القصر طلبت السيدة فلورفيل من صوفي أن تقاسم مرغريت

غرفتها ، وأحست صوفي بسعادة العصفور الذي فُتح له القفص فانطلق إلى فضاء الحرية .

ونامت والابتسامة تشرق على وجهها .

الفصل الثاني عشر

صوفي تأكل بشراهة

انقضى أسبوعان على وجود صوفي عند السيدة فلورفيل ، واستطاعت أن تتخلص من كل مساوئها ، واكتسبت عادات جديدة ، فهي تنهض صباحاً فتغسل وجهها وتمشط شعرها وتؤدي صلاتها ، ثم تتوجه إلى طعام الفطور مع البنات وهي سعيدة لا تكاد تصدق أنها تخلصت من سجنها لدى السيدة فيشني ، ولكنها لم تستطع التخلص من نهمها ، وذلك لأن خالتها كانت تحرمها الطعام والماء .

وهي الآن تأكل ما استطاعت خوفاً من أن تحرم من الوجبة التالية ، فكانت البنات يسخرن منها ، فهي حين تأكل بشراهة وتملأ معدتها لا تقدر على اللعب والجري معهن ، ولكن السيدة فلورفيل أدركت هذا ومنعتهن من السخرية بها ، وتركتها تأكل وتشرب قدر حاجتها ، وقد فهمت

صوفي تصرف السيدة فلورفيل فاحمرت خجلاً وبدأت تأكل بهدوء .

مادلين :

– ما زلت تشعرين بالخوف يا صوفي ، فأنت تهابين كل شيء وتختبئين خوفاً من العقوبة .

صوفي :

– لأن صوت خالتي يتردد في سمعي وأنسى أحياناً أني معكن ، وأخشى على هذه السعادة أن تزول عني .

قالت ذلك وأمسكت بيد السيدة فلورفيل وقبلتها ، فعانقتها السيدة وهي تمسح على رأسها بحنان .

صوفي :

– ما أطيب قلبك يا سيدتي ، إني أدعو الله في صلاتي أن يحفظك وأن أبقى معك .

السيدة فلورفيل :

– اسألي الله أن تكوني عاقلة ، مهذبة ، مطيعة ، وأن يعطف عليك قلب خالتك لتعيشي معها سعيدة .

سكتت صوفي وكأنها وجدت اتّباعَ هذه النصيحة أمراً صعبَ المنال .

وأما مرغريت فكانت لا تجلس في مكان وكأنها تريد أن تقول شيئاً ، ولاحظت السيدة رسبورغ ذلك فسألتها :

– ماذا بك يا مرغريت ؟ لماذا تنظرين إلى السيدة فلورفيل هكذا ؟

مرغريت :

– لأني أجد نصيحتها في غير مكانها ، ولن أطلب من الله أن يرد السيدة فيشني إلينا بل أتمنى أن يأخذها إليه لئلا تعود إلى معاقبة صوفي .

السيدة رسبورغ :

– طلبت السيدة فلورفيل أن يحسّن الله أخلاق صوفي لتكون سعيدة في الحياة .

مرغريت :

– ولكن إذا رجعت السيدة فيشني فهذا من سوء حظ صوفي لأنها لا يمكن أن تكون طيبة معها .

السيدة فلورفيل :

– يا عزيزتي مرغريت ! إن الله قادر على كل شيء ، وقد يبدل قلب السيدة فيشني تجاه صوفي ، ولكن على صوفي أن تدعو بالخير لخالتها وتطلب الهداية من الله ، هذا واجب الصغار تجاه الكبار .

مرغريت :

– أتمنى لو أصبحت السيدة فيشني طيبة ، حسنة الأخلاق ، ولكن الأفضل أن تبقى هناك ولا تعود ، وتترك لنا صوفي .

السيدة فلورفيل :

– لاشك أنك طيبة القلب تتمنين الخير لصوفي ، ولكن الأفضل لها أن تعيش مع خالتها وتحسن رعايتها من أن تعيش بيننا ضيفة وليس علينا واجبات نحوها .

صوفي :

– صحيح ما تقوله السيدة فلورفيل فلو استطاعت خالتي أن تحبني كما تحبك أمك لفضلتُ العيش معها دائماً ، ولا أكون قلقة على مصيري بعد شهور .

مرغريت :

– ولكني خائفة من عودة السيدة فيشني .

صوفي :

– وأنا أيضاً .

بعد انتهاء الجميع من الطعام انصرفت السيدتان إلى عملهما على حين جلست البنات يلعبن ، ثم خرجن إلى الحديقة ، فطلبت مادلين وكاميل من مرغريت وصوفي أن

تبحثا عن شتلات الفريز لكي يزرعنها في الحديقة ، وسألت مرغريت : أين نجدها .

صوفي :

– رأيت غير بعيد من الغابة شجرات الفريز .

مرغريت :

– الأفضل أن نسأل البستاني .

صوفي :

– سنذهب لقطع هذه الشجيرات ، وإذا لم نستطع طلبنا مساعدته .

وأسرعت الفتاتان إلى حيث ذكرت صوفي ، وفرحتا إذ وجدتا الشجيرات عامرة بالثمار ، فبدأت صوفي تأكل بنهم ونسيت المهمة التي جاءت من أجلها ، أما مرغريت فذاقتها ثم توقفت .

قالت لها صوفي :

– كلي يا بلهاء .. استغلي الفرصة .

مرغريت :

– أي فرصة ؟ إني آكل منها كل يوم على المائدة .

صوفي :

– الفريز أطيب حين نقطفه بأيدينا ثم نأكل منه ما نشاء ولا يمنعنا أحد ، يا رب ما أشهاه !

كانت مرغريت تنظر إليها مندهشة ، فهي لم تر في حياتها فتاة تأكل بمثل هذه السرعة والشراهة . وبعد أن التهمت صوفي كمية كبيرة وامتلأ بطنها أطلقت صرخة استحسان ثم مسحت فمها ببعض الأوراق .

مرغريت :

– لماذا مسحت فمك بالأوراق ؟

صوفي :

– لئلا تبقى بقع الفريز على منديلي .

مرغريت :

– وإن يكن .. فالمناديل صنعت لمسح البقع .

صوفي :

– إذا علمن أني أكلت الفريز عاقبنني .

مرغريت :

– ومن قال هذا ؟ فنحن نأكل منه كل يوم ما نشاء !

صوفي :

– تأكلين ما تريدين ؟ ولا تمرضين من كثرة الأكل ؟

مرغريت :

– أبداً ، أنا لا آكل كثيراً لأن الشراهة صفة سيئة .

واحمر وجه صوفي خجلاً لأنها تعرف مدى شراهتها ، ولكنها أرادت أن تلفت انتباه مرغريت عن هذا الموضوع فاقترحت عليها انتزاع بعض الشتلات ، وإذا النداء يعلو :

– صوفي .. مرغريت .. أين أنتما ؟

وجرت إليهما كاميل ومادلين .

كاميل :

– ماذا تفعلان منذ ساعة ؟ لقد انقضى وقت استراحتنا ويجب أن ندرس الآن .

مادلين :

– لماذا تأخرتما ؟ . ما هي سوى بضع شتلات !

مرغريت :

– إنها صوفي ، لقد بدأت ..

صوفي :

– اسكتي ، لا تفسدي عليّ ، سوف يوبخونني .

مرغريت :

– لن يوبخك أحد .. ليست أمي مثل أمك .

كاميل :

– ماذا فعلت ؟ أخبريني !

مرغريت :

– منذ ساعة وصوفي تأكل الفريز ولم أر في حياتي أحداً يأكل بمثل هذه السرعة ، كنت أتسلى برؤيتها .

مادلين :

– ولماذا أكلت كل هذا الفريز ؟ سوف تمرضين .

صوفي :

– لا .. لن أمرض ، كنت جائعة .

كاميل :

– جائعة ؟ لقد أكلنا منذ قليل .

صوفي :

– جائعة للفريز وليس للّحم .

كاميل :

– جائعة للفريز ؟ ولكنك شاحبة ، لا بد أنك تحسين بالدوار .

صوفي :

– لا أحس بالدوار ، وأستطيع أن آكل سلة من الفريز .

مادلين :

– لا تغضبي ، نريد مصلحتك ، هيا لنرجع إلى البيت .

كانت صوفي تحس ببعض التوعك ولم تقل شيئاً ، وتبعت صديقاتها في طريقهن إلى البيت وهي ساكتة ، وظنت البنات أنها غاضبة فلم يوجهن إليها الحديث .

وحين وصلن قالت لهن السيدة روسبورغ :

– تأخرتن كثيراً .

مرغريت :

– ذهبنا إلى الغابة من أجل شتلات الفريز .

السيدة فلورفيل :

– هيا إلى الدراسة ، لتأخذ كل واحدة منكن كتبها ودفاترها . وسارعت مادلين وكاميل ومرغريت إلى الدراسة على حين تحركت صوفي بخطوات بطيئة ، ولاحظت السيدة فلورفيل ذلك فقالت لها :

– وجهك شاحب يا صوفي ، كأنك مريضة ، ماذا أصابك ؟

فاحمر وجهها قليلاً ، ونظرت إليها الفتيات معاً وقالت مرغريت :

– إنه الفريز .

السيدة روسبورغ :

– أي فريز ؟ ماذا تقصدين يا مرغريت ؟ .

– لا أدري .. إنني بخير ولكني أحس ببعض الغثيان .

حينئذٍ لم تعد صوفي قادرة على التظاهر ، وقد غثيت نفسها وأحست بالدوار ، ثم تقيأت كل ما أكلته على الأرض .

كانت السيدة فلورفيل شديدة الغضب ، ولكنها لم تعاقب صوفي بل أخذتها إلى غرفتها فبدلت لها ملابسها وغسلت وجهها وأطرافها ، ثم حضّرت لها كأساً ساخناً من الزهورات ، وأما صوفي فكانت شديدة الخجل ولم تجرؤ على النطق بكلمة ، وحين استعدت للنوم سألتها السيدة فلورفيل عن حالتها .

صوفي :

– أنا بخير ، شكراً لك يا سيدتي ، سامحيني لأنك لم تضربيني على هذا العمل .

السيدة فلورفيل :

– لقد كنت شديدة النهم يا صوفي ، وقد عاقبك الله على هذا بما يكفي ، وسوف تنامين الآن على حين نمضي نحن إلى النــزهة وزيارة الجيران .

أما الضرب فإني لا أضرب أحداً ، وإني متأكدة من أنك لن تعودي إلى هذه الشراهة ثانية ولن تملئي معدتك حتى تمرضي ، و لا أحرّم عليك أكل الفواكه ولكن أنصحك بالاعتدال لئلا تمرضي .

لبثت صوفي في سريرها لا تتحرك على حين مضى الجميع إلى النــزهة وزيارة الجيران ، وفكرت صوفي فيما قالت السيدة فلورفيل وعاهدت نفسها ألا تأكل أكثر مما تطيق معدها .

الفصل الثالث عشر

العقوبة

بعد ساعة جاءت كاميل ومادلين ومرغريت لمعرفة أخبار صوفي ، وكن في ثيابهن الجديدة .

صوفي :

– لماذا أنتن لابسات ثياباً جديدة ؟

كاميل :

– سنذهب إلى السيدة ديفرتيل لجمع الكرز .

مادلين :

– وكم أسفنا لأنك لن ترافقينا ، كنا سنتسلى معاً .

مرغريت :

– السنة الماضية قطفنا الكرز وسُمح لنا بتسلق الأشجار وأكل ما شئنا ، ولكننا لم نؤذ أنفسنا ولم نأكل أكثر مما تحتمل معدتنا كما فعلت أنت بالفريز .

مادلين :

– لا تذكريها بالفريز يا مرغريت ، ألا ترين أنها تخجل من عملها ؟

صوفي :

– طبعاً إني خجولة وآسفة من تلك الشراهة التي سيطرت علي ، ولن أعود إلى هذا العمل أبداً .

مرغريت :

– قالت أمي إنني حين أصاب بعسر الهضم أشبه الخنـــزير البري .

ورأت مادلين وكاميل أن كلام مرغريت يؤذيها فطلبتا من مرغريت السكوت وعانقت البنات صوفي وانصرفن إلى زيارة السيدة ديفرتيل .

وسمعت صوفي صوت انطلاق العربة بهن ، وطلبت من المربية الإذن بالتمشي في الحديقة فأذنت لها ، وأحست بالسأم ساعات وساعات .

حين رجعت البنات من الزيارة كن يحملن معهنّ سلة كبيرة من الكرز .

من الغد قالت كاميل لصوفي :

– هذا المساء سنصنع مربى الكرز ، لقد علّمتنا السيدة ديفرتيل كيفية صنعه وسوف تشاركيننا في هذا العمل . وقالت لنا ماما إنه سيكون لنا ، لأنه مصنوع من الكرز الذي جلبناه .

وهتفت صوفي :

– عظيم .. رائع !

مادلين :

– يجب أن نعطي منه للمرأة الفقيرة جين فهي مريضة ولديها ستة أولاد .

صوفي :

– ولكنه كثير على هذه المرأة الفقيرة .

كاميل :

– ولماذا يكون كثيراً عليها ولا يكون كثيراً علينا ؟ هذا قول لا يليق بك يا صوفي .

صوفي :

– وهل معنى كلامك أن المرأة الفقيرة جين تعيش على أكل مربى الكرز ؟

كاميل :

– على العكس ، لأنها لا تتذوق مربى الكرز دوماً فعلينا أن نتصدق عليها به .

صوفي :

– لا أريد أن أتعب نفسي في صنع مربى الكرز ثم أعطيه للفقراء .

مرغريت :

– ومن طلب منك أن تصنعيه أيتها المغرورة ؟ وهل نحن بحاجة إلى مساعدتك ؟ ألا ترين أن كاميل قد طلبت منك المشاركة لكي تتسلي ؟

صوفي :

– أليس لي حصة في الكرز ؟ إذن أريد حصتي .

مرغريت :

– ليست لك حصة فيه لأنك لم تكوني معنا ، ولكن لا أريد أن أكون شرهة وبخيلة مثلك .. خذي .. خذي .. وبدأت ترمي الكرز على صوفي التي اشتد غضبها فضربت كتف مرغريت بيدها ، وهجمت مرغريت عليها ، ولكن حالتْ مادلين وكاميل بينهما ، وعاتبت كاميل مرغريت على تسرعها فاعتذرت لصوفي ، ولكن صوفي لم تهدأ وأرادت أن تنتقم من مرغريت التي رمت الكرز عليها وصرخت بمادلين التي تمسك بها :

– اتركيني .. اتركيني .. اتركيني أعطيها من الصفعات بعدد حبات الكرز ، اتركيني وإلا ضربتك أنت أيضاً .

وارتفعت أصوات البنات حتى سمعتها السيدة فلورفيل والسيدة رسبورغ فأسرعتا إليهن ، فدخلتا في اللحظة التي

تخلصت فيها صوفي من مادلين بضربة قدم على كاحلها ، وهجمت على مرغريت لتصفعها ولكن يدها تجمدت فوق رأسها حين لمحت السيدتين ، فاحمر وجهها خجلاً وخوفاً مما ينتظرها من عقاب .

أمسكت السيدة فلورفيل بيدها وجذبتها وخرجت بها إلى غرفتها وأجلستها وراء مكتبها ووضعت أمامها ورقاً وقلماً وقالت لها :

– ستقضين كل النهار في هذه الغرفة .

صوفي :

– لست أنا بل مرغريت .

السيدة فلورفيل :

– اسكتي .. ستكتبين عشر مرات صلاة الشكر ، وحين هدئين سأعود لأراك تطلبين المغفرة من الله لأنك غضبت على صديقتك ، وستأكلين في هذه الغرفة وتنامين دون أن تري صديقاتك .

صوفي :

– ولكن قلت لك إن مرغريت ..

السيدة فلورفيل :

– اسكتي واكتبي .

خرجت السيدة فلورفيل من الغرفة وأغلقت بابها بالمفتاح ومضت إلى البنات تسألهن عن تصرف صوفي ، فحكين لها كيف أن مرغريت قذفت صوفي بالكرز وأن أمها قد عاقبتها بأن تظل في غرفتها و لا تنــزل إلى القاعة هذا المساء .

السيدة فلورفيل :

– هذا مؤسف .. وحسناً فعلت السيدة رسبورغ إذ عاقبت مرغريت .

كاميل :

– ولكن مرغريت محقة ، إذ أرادت أن تتصدق بالمربى على الفقيرة وصوفي متكبرة شريرة .

السيدة فلورفيل :

– هذا صحيح ، ولكن من واجب مرغريت أن تسيطر على أعصابها وأن تشرح لها واجبنا نحو الفقراء والمعوزين لا أن تضربها بالكرز .

كاميل :

– ولكن صوفي لم تكن تصغي إليها .

السيدة فلورفيل :

– صوفي شديدة الحيوية سيئة التربية وليست معتادة على الإحسان إلى الفقراء ، ولكنها طيبة القلب ويمكنها أن تفعل مثلكن وتصبح فتاة مثالية ، وهي الآن غاضبة ولن يرضى الله عنها .

مادلين :

– اسمحي لي يا أمي برؤيتها ، أظنها تبكي الآن ولا ريب أنها تابت عن عملها من كل قلبها .

السيدة فلورفيل :

– أريد أن أتركها حتى المساء ، ولا تكلميها الآن لأنها ما تزال غاضبة ، وسوف أراها بعد ساعة .

وذهبت السيدة فلورفيل ومادلين وكاميل إلى السيدة رسبورغ ، وانصرفت الفتاتان إلى اللعب بدميتيهما وقد تأكدتا أن الحياة دون صديقات كئيبة مملة .

أثناء ذلك كانت صوفي تبكي في الغرفة لا ندماً بل قهراً وغضباً ، وتتفحص الغرفة لعلها تجد وسيلة للهرب ، ووجدت النافذة عالية لا تستطيع فتحها وإنْ وضعت كرسياً أمامها ، وأما الباب الذي صدمته عدة مرات فكان صامداً لا يمكن كسره ، فلم تجد شيئاً تنفس به عن غضبها سوى القلم والأوراق ، فدهسته بقدميها ومزقت الأوراق بيديها ، وأمسكت بصفحات الكتاب فنـزعت أوراقه ورمتها في الهواء ، وأرادت أن تكسر الكرسي فلم تسعفها قوتها فرمته وهي تلهث والعرق يتصبب منها ، وحين هدأ غضبها وفكرت فيما فعلته شعرت بالجزع والندم لذلك :

– ماذا ستقول السيدة فلورفيل .. وأي عقوبة ستحلّ بي ؟ لا ريب أنها ستضربني .. فلتضربني ، لقد تعودت على الضرب ولن أفكر بهذا الأمر .. سأنام الآن .

وأغلقت صوفي عينيها ولكن لم يأتها النوم وظلت قلقة ، فكانت تقفز لأدنى صوت تسمعه ، وتظن أن الباب سيفتح بعد قليل .

انقضت ساعة ، فسمعت المفتاح يدور في القفل والباب يفتح ، ودخلت السيدة فلورفيل ، فنظرت إلى حالة الغرفة وقالت هادئة :

– اجمعي هذه الأوراق كلها !

فلم تتحرك صوفي .

– قلت لك اجمعي هذه الأوراق !

ولم تتحرك صوفي ، فأعادت السيدة فلورفيل قولها بهدوء :

– إذا لم تجمعيها فسوف تسيئين إلى نفسك وتتضاعف عقوبتك .

ونادت بأعلى صوتها :

– إليزا .. تعالي لحظة أرجوك .

ودخلت إليزا ووقفت مذعورة أمام هذه الفوضى ، وتابعت السيدة فلورفيل :

– اجمعي هذه الأوراق الممزقة وهاتي نسخة أخرى من صلاة الشكر وقلماً وورقة .

وحينما كانت إليزا تنظف الغرفة جلست السيدة فلورفيل تتأمل صوفي المرتجفة أمام هدوئها . وكم تمنت لو أنها لم تمزق الكتاب والأوراق ولم تكسر القلم . وحين رجعت إليزا بما طلبته السيدة فلورفيل منها ، نهضت السيدة وأجلست صوفي مكانها وقالت لها :

– ستكتبين الآن صلاة الشكر عشر مرات كما طلبت منك ، وسيكون عشاؤك الحساء والخبز والماء فقط ،

وستدفعين ثمن ما مزقت وكسرت من مصروفك الشخصي ، ولن تري صديقاتك ، ولكن ستتنــــزهين برفقة إليزا الممنوع عليها محادثتك ، ولن تخرجي من سجنك إلا حين يدخل الندم ، الندم الصادق إلى قلبك ، وتسألين الله المغفرة عن همك وأنانيتك وكرهك للإحسان ، واسألي الله أيضاً ألا يقبض روحك قبل أن تتوبي .

وتوجهت السيدة فلورفيل إلى الباب ، حينئذٍ اندفعت إليها صوفي وتمسكت بأذيال ثوبها وهي تقول :

– اغفري لي .. اغفري لي ..

وتأملتها السيدة فلورفيل برهة ثم أمسكت يديها بحنان :

– يا صغيرتي ، إن الندم يمحو الذنوب ، وقد أذنبت أمام الله أولاً وأمامي ثانياً ، ولا شكّ أن ندمك صادق ولكنه لا يلغي العقوبة ، ولن تلعبي مع صديقاتك قبل مساء الغد ، وستفعلين كل ما طلبته منك .

صوفي :

– يا سيدتي .. إني أستأهل العقوبة ولا أطلب منك إلغاءها .. ولكني أطلب منك الصفح والمغفرة ، هذا كل ما أطمع فيه ، فهل تصفحين عني ؟ .

السيدة فلورفيل :

– طبعاً أصفح عنك ولا أحقد عليك ، واطلبي المغفرة من الله كما طلبتها مني ، وسوف أبعث إليك عشاءك وستكتبين ما هو مطلوب منك ، وسوف تنهين قراءة الكتاب الذي جئتك به .

عانقت السيدة فلورفيل صوفي التي قبلت يدها ، فانتزعت السيدة فلورفيل نفسها منها وخرجت دون أن تغلق الباب بالمفتاح ، وضاعفت هذه الثقة من ندم صوفي وأسفها لأنها كانت شريرة سريعة الغضب ، وجلست تعاتب نفسها :

- كيف جرؤت على إغضاب السيدة فلورفيل التي دافعت عني وأحاطتني برعايتها وأحسنت إلي ، وحين ندمتُ

على خطئي سارعتْ إلى نسيانه وعادت إليها رقتها وطيبة قلبها ، فكيف ظنّي بالله العلي القدير الذي يغفر الذنوب ؟

ثم بدأت تصلي لله بصدق وإخلاص وتطلب منه العفو والمغفرة لِما قدّمت يداها ، ووعدت بألا تعود إلى عمل الشر أو التفكير فيه .

وما كادت تنهي صلاتها حتى دخلت إليزا وجلبت لها صحن حساء وقطعة خبز كبيرة وإبريق ماء .

إليزا :

– هذا عشاء المساجين ، ولكنك حين تكونين جائعة ستجدينه لذيذاً .

صوفي :

– آه يا إليزا ، إني لا أستأهله .. فهو كثير على فتاة مثلي .

إليزا :

– آه .. لقد بَدّلْنا النغمة بسرعة ، ولو رأيت نفسك منذ قليل لقلت .. لقلت .. إنك عفريتة .

صوفي :

– هذا ما كنت عليه حقاً ، إني نادمة ولن أعود إلى عمل الشر .

وبدأت تأكل بسرعة وهي تتلذذ بالطعام ، فكانت إليزا تراقبها ، ثم قالت :

– حين تكونين طيبة تنعمين بصحبة أمثالك من البنات وتذهبين معهن إلى النــزهة ولا تعاقَبين إلا إذا ارتكبتِ خطأ كبيراً .. وقد رأيت كيف كانت السيدة فلورفيل حانية عليك ، ولا أفهم سبب غضبك .

صوفي :

– لقد تعودت على الغضب حين أعاقَب ، فكانت خالتي تزيد من حنقي وغضبي ولا تخفف منه ، لذلك لا تؤثر فيّ

العقوبة ، وأما السيدة فلورفيل فهي تدفعني إلى تحسين أخلاقي والتغلب على غضبي .

إليزا :

– ذلك لأن السيدة فيشني تعاقبك وهي غاضبة أو تتلذذ بتعذيبك ، أما السيدة فلورفيل فهي تعاقبك لأن واجبها نحوك يدفعها إلى معاقبتك ، فهذا يفيدك وإن أنكرتِه .

صوفي :

– نعم .. صدقت ، هذا يفيدني .

بعد أن أنهت صوفي عشاءها انصرفت إلى كتابة عقوبتها بخط حسن ، ثم قرأت صلاتها وتفكرت فيما جلبته على نفسها بسبب عنادها ، وجاءت إليزا تدعوها إلى النوم فمضت إلى غرفتها فإذا مرغريت نائمة ، فقبلت خدها بحنان كأنها تطلب الصفح منها ، ثم نامت مرتاحة الضمير .

الفصل الرابع عشر

الإضاءة

مرت سنة على إقامة صوفي لدى السيدة فلورفيل ولم تصلها أخبار خالتها زوجة أبيها ، ولم تكن قلقة عليها ، بل إن هذا الصمت قد هدأ من شراسة طبعها .

واعتبرت نسيان خالتها لها غايةَ مُناها ، فقد كانت تعيش سعيدة مع صديقاتها ، وكلما قضت يوماً مع هؤلاء الفتيات المثاليات تحسنت أخلاقها وتطورت مَلَكاتُها التي كاد أن يدمرها عنف خالتها ، وكانت السيدة فلورفيل والسيدة روسبورغ تعطفان على البنات ولكن دون أن تفسدهن بكثرة الدلال ، ولا يمنعهما حبهما لهنّ من معاقبتهن إذا أخطأن ، فهذا يجعلهن يقدرن قيمة العمل وضرورة الطاعة ، وقد استفادت صوفي كثيراً من اتباع هذا المثال الذي تراه أمامها .

ذات يوم دخلت السيدة فلورفيل إلى غرفة صوفي وبيدها رسالة وقالت لها : يا عزيزتي .. هذه رسالة من خالتك .

نهضت صوفي مذعورة ثم سقطت على مقعدها ، وقد أخفت وجهها بيديها ولا تكاد تمسك دموعها .

ولاحظت السيدة فلورفيل فزعها فقالت : يا حبيبتي الصغيرة .. أنت خائفة أن تعود خالتك وتستردك منّا ، لا تخافي ! لقد كتبت إلي تقول إنها في نابولي حيث تزوجت من أحد النبلاء ، ومن شروط الزواج ألا تقيمي معها . وقد خيّرتني بين أمرين : إما أن أرسلك إلى مدرسة داخلية أو أحتفظ بك لتكبري مع مادلين وكاميل وتكوني ابنتي الثالثة ، فماذا تفضلين أنت ؟

فارتمت عليها صوفي وهي تقبلها وتقول : يا سيدتي العزيزة ، احتفظي بي لديك ، وأكملي معروفك واسمحي لي أن أحبك حب البنت لأمها ، وأن أحترمك وأطيعك كما

تفعل البنت المؤدبة ، وسأسعى أن أكون جديرة بحنانك وعطف صديقاتي علي .

السيدة فلورفيل : اتفقنا إذن ، ستبقين معي .. وستكونين مثل ابنتيّ كاميل ومادلين ومثل مرغريت .. وأنا واثقة أنك تفضلين البقاء معنا كما لو أنك في أحسن مدرسة داخلية في باريس .

صوفي : أشكر لك حسن ظنك بي وعطفك علي ، ولكني أخشى أن أكون عالة عليك .

السيدة فلورفيل : لا تخافي .. لقد ترك لك والدك ثروة طائلة تكفي لمصروف عشرة من أمثالك .

وسارعت صوفي إلى صديقاتها تزفُّ إليهن هذه الأنباء السارة ، فكدن يطرن من الفرحة ، وتجمعن في حلقة يرقصن ويغنين حتى هُرعت إليزا على أصواتهن .

إليزا : ماذا جرى ؟ ما هذا الرقص وهذه الأفراح ؟ وما سبب كل هذا الصراخ ؟ .

مرغريت : آه ما أسعدنا .. ما أسعدنا يا إليزا ! تعالي ارقصي وغني معنا .

إليزا : ولماذا تريدين مني أن أرقص كالقرد ؟ ماذا جرى ؟

مرغريت :

– ستبقى صوفي معنا .. دائماً .. دائماً .. لقد تزوجت السيدة فيشني ولا تريد أن تكون صوفي معها .. ما أسعدنا ! .

وانضمت إليزا إليهن وتعالت أصواهن حتى جاء كل من في المنـــزل يتساءل عن سبب هذه الضوضاء والرقص ؟ وكلما علم أحدهم بهذا النبأ ظهرت الفرحة على وجهه لأن صوفي كانت محببة إلى الجميع ..

وحين تعبت البنات من الرقص جلسن يتحادثن ، وقالت إليزا : للاحتفال بالأعياد الكبرى تلزمنا إضاءة القصر احتفاء ببقاء صوفي معنا .

كاميل : ويلزم لهذا فوانيس ، أليس كذلك ؟

إليزا : نصنع هذه الفوانيس .

مادلين : وكيف نصنعها ؟ ومن أي شيء ؟

إليزا : من قشور الجوز ومن الشمع الأصفر والشموع .

مرغريت : أحسنت يا إليزا .. تعالي أُقبلك ..

واندفعت مرغريت إلى إليزا ، لكنها هربت أمامها فلحقت بها البنات وأردن الإمساك بها ، إلا أنها استطاعت الإفلات منهن وهي تضحك ودخلت غرفتها وأغلقت بابها ولم يستطعن فتحه فقد كان قوياً .

مرغريت : إليزا .. إليزا .. افتحي لنا أرجوك .

كاميل : إليزا .. الطيبة ، لن نقبّلك سوى مائة وخمسين قبلة .

مادلين : إليزا الرائعة ، افتحي لأقول لك شيئاً .

صوفي : إليزا .. افتحي سنرقص معك فقط .

إليزا : لن أفتح .. عندي مفاجأة كبرى بانتظاركن .

وسألت صوفي : ماذا تفعل ؟ إني متشوقة لمعرفة ذلك .

مرغريت : سأراقبها من ثقب القفل .. ولكني لا أرى شيئاً ، إنها واقفة وظهرها لنا .. ولا أرى ما تفعل .

كاميل : عندي فكرة .. لماذا لا ندور حول البيت وننظر من النافذة فهي ليست عالية . ولأنها لا تتوقع أن نراقبها من النافذة ، فلن يكون لديها الوقت للاختباء .. وسنرى ما تفعله .

صوفي : فكرة جيدة ولكن بدون ضجة .. هيا على رؤوس أصابعكن .

وفعلن ما طلبت صوفي منهن ، فدرن حول البيت على رؤوس أصابعهن حتى وصلن إلى نافذة إليزا ، كانت مرتفعة بالنسبة إلى قامة البنات ، فجلبن مقعداً من الحديقة وصعدن فوقه .. وأطلقت إليزا صرخة عالية ولم تستطع إخفاء ما تفعله ، وهتفت البنات : إنها تحضّر الفوانيس من أجل الإضاءة هذا المساء .

فصاحت بهن : لقد رأيتن ما أفعله ، فشاركنني إذاً في صنع الفوانيس .

دُرْنَ حول البيت مرة ثانية وهن يضحكن ، ودخلن غرفة إليزا فوجدنها قد كسرت مئات من الجوزات وملأتها بالشمع أو الدهن . فبدأن يساعدنها في تحضير الفوانيس .

كان الإعداد لهذا الاحتفال طويلاً ، فقد ذوبت البنات الشمع أو الشحم على نار هادئة ثم سكبنه داخل قشور الجوز ، وقبل أن يبرد وضعن فيه فتيلاً .

وبعد أن حضّرن مئات منه وضعنها في سلتين كبيرتين .

قالت إليزا : لقد انتهى عملنا الآن ، يجب أن نضع الفوانيس فوق الأسطحة والأشجار والطاولات وعتبات البيوت ، وسوف نضيئها ليلاً .

كانت السيدة فلورفيل و السيدة رسبورغ تعملان في القاعة حينما دخلت البنات ومعهن سلتان كبيرتان .

السيدة رسبورغ : ما بداخل هاتين السلتين ؟

كاميل : فوانيس للاحتفال هذا المساء بزواج السيدة فيشني وتركها صوفي لدينا .

السيدة فلورفيل : ما أجمل هذه الفوانيس ! من أين جئتن بها ؟

مادلين : لقد صنعناها يا ماما ، كانت فكرة إليزا ، وتعاونا على إنجازها .

وجدت السيدتان أنها فكرة جيدة وساعدن البنات على توزيع الفوانيس في أنحاء القصر ، وحين جاء وقت العشاء أخذت إليزا الفتيات لتغسل لهن أطرافهن وتعتني بهن ، وبدا العشاء لهن طويلاً فقد كن متشوقات لرؤية الإضاءة .

وبعد العشاء كان عليهن انتظار حلول الظلام ، فقمن بنــزهة مع أمهن حتى أظلم المكان ورجع الجميع إلى القصر ، وبدأن بإشعال الفوانيس ، ثم جلسن في القاعة يتأملن بإعجاب ما صنعت أيديهن ، واقترحت مرغريت أن يلعبن لعبة (الغميضة) على أن يشارك فيها الكبار والصغار ،

ويكون مجالها مفتوحاً في الغرف والممرات والطابق العلوي أيضاً .

وبدأ الجميع هذه اللعبة المسلية ، واختبأت السيدة فلورفيل كما اختبأت السيدة رسبورغ وبحثت عنهما الفتيات حتى وجدنهما ، وكانت سهرة رائعة قامت خلالها السيدتان بتحضير قالب من الحلوى وعصير البرتقال ، وأكل الجميع وشربوا . وحملت إليزا قطعة كبيرة من الحلوى معها ، ثم تهيأن للنوم وهن يشعرن بسعادة لا توصف .

الفصل الخامس عشر

الجدري

ذات يوم شكت كاميل من الصداع والغثيان ، وجزعت السيدة فلورفيل لشحوب وجهها وتبدل ملامحها فأرقدها في السرير ، واستمرت الحمى والصداع والقيء ، واستدعي الطبيب فأعطاها بعض الأدوية الخافضة للحرارة ووصف لها حميةً غذائية .

من الغد ، لاحظت إليزا بقعاً حمراء على وجه كاميل وذراعيها وجسمها كله ، وفي المساء أصبحت كل بقعة حبة ، ثم زال عنها الصداع والغثيان .

أعلن الطبيب أنها مصابة بالجدري ، وفي الحال أبعدت عنها الفتيات الثلاث وبقيت السيدة فلورفيل وإليزا بجانبها ، وقد أرادت السيدة فلورفيل أن تبعد إليزا لكنها رفضت .

إليزا : لن أبتعد أبداً عن عزيزتي كاميل ، ولو أصبت بمثل مرضها ، لن أتخلى عن واجبي .

كاميل : أعرف كم تحبينني وأنا أحبك أيضاً ، ولكني لا أريد أن أراك مريضة .

إليزا : حسناً .. حسناً .. لا تتكلمي كثيراً وإلا رجع إليك الصداع .

ابتسمت كاميل وشكرت إليزا بنظراتها ، وكانت عيناها نصف مغمضتَيْن ووجهها مغطى بالبثور ، وبعد أيام جفت هذه البثور ، ونهضت كاميل من سريرها وهي ضعيفة القوى .

أثناء مرضها كانت مادلين ومرغريت وصوفي يسألن عنها ، وقد منع عليهن الاقتراب منها ، فكانت إليزا تأتيهن بالأخبار عشرين مرة في اليوم .

كانت البنات يرسلن إلى كاميل قصاصات من الورق رسمت عليها الصور أو كتبت عليها الأشعار ، أو يبعثن إليها

بعض السلال الصغيرة للترويح عنها ، ولم تكن تستطيع أن ترد على هداياهن أو تفعل شيئاً أو تقرأ لئلا تتعب عينيها .

بعد ثمانية أيام من مغادرتها الفراش بدأت القشور تسقط عن بثورها ، ولاحظت كاميل أن إليزا مصفرة الوجه .

كاميل : هل أنت مريضة يا إليزا ؟ أنت شاحبة ويدك ساخنة ، هل تحسين بالحمى ؟

إليزا : الصداع لا يفارقني منذ الأمس ، ولم أنم الليل ولذلك شحب وجهي .

كاميل : عليك أن تنامي ، أرجوك .. أنت لا تقوين على الوقوف .

وانهارت إليزا على الكرسي ، فأسرعت كاميل واستدعت أمها ، وحين رأت حالة إليزا سخّنت لها بعض الحليب ، واضطرتها إلى النوم على الرغم من اعتراضها ، واستدعي الطبيب مرة ثانية ، فوجد حرارتها مرتفعة وهي هذي فأعلن أنها بداية الجدري ، ووصف لها عدداً من الأدوية

لم تخفف آلامها . وفي اليوم التالي ألصق بعض العلق على كاحليها لكي يمص بعض الدم وتظهر البثور ، ولم تفارقها كاميل فكانت تناولها دواءها وتضع الكمادات الباردة على جبينها وتسقيها إذا عطشت ، ولم تطع أوامر أمها التي منعتها من النوم في غرفة إليزا ، فكانت تقول وهي باكية :

– لقد مرضتُ وهي تعالجني ، فانتقلت إليها العدوى ، فمن العدل أن أعالجها أيضاً .

ولم تشعر إليزا بمن حولها ولم تفتح عينيها ، وكان العلق يمتص الدم من كاحليها ، ثم نزع عنهما ولُفّ كاحلاها بالقطن ، ومن الغد كان جسدها كله مغطى بالبثور ، واستراحت قليلاً ففتحت عينيها وتأملت كاميل التي كانت قلقة عليها وابتسمت لها ، فأمسكت كاميل بيدها الملتهبة ورفعتها إلى شفتيها ، وقالت لها : يا عزيزتي إليزا ، لا تتكلمي ، إني وأمي بجانبك .

ولم تكن إليزا قادرة على الكلام بعد ، ولكنها أحست بالرعاية التي أحاطتها بها كاميل والسيدة فلورفيل ، فكانت تحاول التعبير عن عرفانها بكل وسيلة تقدر عليها .

ظلت إليزا عدة أيام في مرحلة الخطر ، ثم أعلن الطبيب أنها قد تجاوزت هذه المرحلة وبدأت البثور تجف ، وكانت كثيرة بحيث غطت وجهها كله ، وبعد أن تحسنت وتناولت شيئاً من الطعام استأذنت كاميل من أمها لترى أختها وصديقتيها .

قالت لها أمها : تستطيعين التنـــزه مع أختك وصديقتيك ، ولكن لا تقتربي منهن ولا تلمسيهن .

غادرت كاميل الغرفة وجرت إلى الهواء الطلق ، وسمعت أصوات البنات وهن يتحدثن في الحديقة فذهبت إليهن وهي تقول : مادلين ، مرغريت ، صوفي ! أريد أن أراكن وأتحدث إليكن ، ولكن إياكن أن تلمسنني .

فتسابقت البنات لندائها وهن يصرخن فرحات .

وهتفت كاميل : توقفن ، لقد منعتني أمي من لمسكن ، إني ما أزال ناقلة لعدوى الجدري .

مادلين : أريد أن أعانقك يا عزيزتي .

مرغريت : سوف أعانقك برغم كل شيء .

وهجمت على كاميل التي تراجعت إلى الخلف وقالت : لو عرفتِ آلام الجدري لما استهنت به .

صوفي : قولي لنا إن كنت قد قاسيت أو أصابك الخوف .

كاميل : حين كنت مريضة كان الصداع أشد شيء علي ، ولكن إليزا قاست مدة أطول مني .

مادلين : وكيف حالها اليوم ؟ ومتى نستطيع رؤيتها ؟

كاميل : حالتها جيدة .. لقد أكلت البارحة ، وهي تتمشى في غرفتها ويمكننا رؤيتها غداً من وراء النافذة .

مادلين : ما أسعدنا ! ومتى يمكننا معانقتك كما نعانق ماما ؟

كاميل : تستطيعين معانقة ماما لأنها ليست مريضة ، وهي تبدل ثيابها التي تلوثت بالجراثيم .

واستمرت البنات يحكين تفاصيل حياتهن الرتيبة البسيطة ، ثم جاءت السيدة فلورفيل والسيدة رسبورغ فسارعن إلى معانقتهما .

منذ ثلاثة أسابيع لم تر السيدة فلورفيل البنات إلا من بعيد عبر النافذة ، وصباحاً أعلن الطبيب أنه لا خطر من انتقال العدوى سواء بواسطة السيدة فلورفيل أو كاميل ، ولكن يجب على إليزا أن تبقى في عزلة حتى تجف بثورها .

من الغد كانت البنات متجمعات أمام النافذة بانتظار إطلالة إليزا ، فلبسن أبهى ثيابهن ووضعن الكراسي والمقاعد وجلسن وكأنهن في حفلة موسيقية ، وفجأة فتحت النافذة وأطلت إليزا ، وغلبتهن الدموع وهن يهتفن : إليزا .. إليزا .. !

مرغريت : صباح الخير يا عزيزتي !

صوفي : صباح الخير يا إليزا !

إليزا : صباح الخير يا حبيباتي . ! أرأيتن كيف أصبحت جميلة بهذا القناع على وجهي .

كاميل : ستظلين دوماً مربيتي إليزا الجميلة ، وهل أنسى أنك أصبت بالعدوى مني .

إليزا : وقد خدمتني أنت أيضاً ، فأنت فتاة رائعة ، ولن أنسى ما حييت ما أحطتني به من عناية وما غمرتني من حنان أنت والسيدة فلورفيل .

وسكتت لتمسح الدموع عن خديها ، وانتقلت عدوى البكاء إلى البنات وارتفع نحيبهن .، وجاءت السيدتان فرأتا هذه الجوقة الباكية فسألتا مذعورتين : ماذا حدث ؟

– لا شيء يا ماما .. إنها إليزا في النافذة .

– لا تتعبوها بالبكاء ، وحين تستريح وتبرأ من مرضها سنحتفل بهذه المناسبة وبما يليق بها .

وهتفت البنات فرحات : الاحتفال .. الاحتفال .. شكراً يا ماما .. احتفال بشفاء إليزا .

وتعبت إليزا من البكاء ، فرجعت إلى سريرها ومضت البنات مع السيدتين يناقشن تفاصيل الاحتفال بشفاء إليزا .

وسنرى فيما يلي ماذا تقرر حول هذا الموضوع .

الفصل السادس عشر

الاحتفال

منذ عدة أيام والحركة دائبة في القصر ، وقد أحيطت شجرة البرتقال المطلة على القاعة برعاية خاصة ، كما أنهن قطفن بعض الأزهار وأنضجن بعض الطعام والحلويات ، وكانت البنات ينظرن إلى إليزا نظرات غريبة ، ويحرصن على ألا تقترب من شجرة البرتقال ، ولا يفارقنها . وقد ظنت إليزا أن هناك مفاجأة تحضَّر لها ، ولكنها تجاهلتها لئلا تفسد على البنات فرحتهن .

وقدم يوم الخميس ، الساعة الثالثة بعد الظهر . فدبت في البيت حركة غير عادية ، وكانت إليزا تستعد لارتداء ملابسها حينما دخلت البنات يحملن سلة كبيرة مغطاة ، وهن في أبهى ملابسهن .

كاميل : سوف نقوم بإلباسك ثيابك .. وقد جلبنا معنا كل ما يلزم .

إليزا : عندي كل ما يلزمني .. شكراً يا بنات .

مادلين : ولكنك لن تري ما جلبنا معنا .. انظري .. انظري .. !

قالت مادلين هذا وكشفت غطاء الموسلين عن السلة ، فأبصرت إليزا فستاناً من التافتة البني اللون وقبته وكُمّاه من الدانتيل وقبعة من الدانتيل المزينة بشرائط بيضاء .

إليزا : هذا كله لي ؟ هذا كثير .. ولا يمكنني أن أرتدي مثل هذه الثياب الفاخرة ، فسوف أشبه السيدة فيشني .

مرغريت : لم يعد للسيدة فيشني وجود ، لقد رحلت .

مادلين : لا همنا إن أقامت أو رحلت ولننصرف إلى إليزا .

وقبل أن تستطيع إليزا منع البنات هجمن عليها وخلعن عنها مئزرها وبقيةَ ملابسها بأقل من دقيقة .

كاميل : اخفضي رأسك حتى أدخل القَبَّة فيه .

مادلين : مدي ذراعك لألبسك الفستان .

صوفي : وأين القبعة ؟ أعطوها القبعة .

بعد أن لبست الثوب ووضعت القبعة ذات الأشرطة أخذها البنات إلى غرفة السيدة فلورفيل لتتأمل نفسها في المرآة الكبيرة ، ووجدت نفسها جميلة ، ولم تمل من النظر إلى ثوبها الجديد الأنيق ، فشكرت البنات وعانقتهن بحنان ، ومضين بها إلى السيدة فلورفيل والسيدة رسبورغ فقد أرادت إليزا أن تشكرهما أيضاً .

قالت إليزا بعدئذٍ وقد توجهت إلى غرفتها : سأخلع هذا الفستان الرائع وأحتفظ به للمناسبات .

كاميل : لا .. بل يجب أن تلبسيه طول اليوم .

إليزا : ولماذا ألبسه ؟

مادلين : سترين .. تعالي معي !

وأمسكت بيدها وأخذتها إلى شجرة البرتقال التي زينت كأنها قاعة استقبال وكانت غاصة بالناس . مُلاّك الأراضي والمزارعون على الكراسي ، والفلاحون والخدم جالسون على الأرض ، ومشت بها البنات إلى مكان وسط الحاضرين وجلسن حولها .

ثم رفع الستار عن المسرحية ، كان موضوع المسرحية تلك المذبحة التي تعرض لها البيض في جزيرة سانت دومنيك وكيف أن الخدم أنقذوا الأطفال الصغار منها وأخذوهم إلى سفينة تغادر الجزيرة إلى فرنسا ، ووضعوا بين يدي قبطانها صندوقاً مملوءاً بالمجوهرات والقطع الذهبية التي يملكها الأطفال ، وصفق الحاضرون لوفاء هؤلاء الخدم وإخلاصهم وحبهم للإنسانية .

وتناثرت باقات الزهور على الممثلين وعلى إليزا التي لم تعرف كيف تشكرهم على حسن عنايتهم بها .

بعد انتهاء العرض مضى الأطفال إلى قاعة الطعام فأكلوا ما شاؤوا من الحلوى والمربيات والمشروبات ، وأما الكبار فقد أقيمت لهم مائدة كبيرة في الحديقة وتناولوا وجبة طعام ساخنة من اللحوم والخضار .

بعد أن شبع الناس أُفسح المكان تحت شجرة البرتقال ، ورفعت الكراسي وهيئت الساحة للرقص ، ثم أُضيئت الفوانيس ، وحين جاء الأطفال بدأت الموسيقا تصدح ، وشرع الحاضرون بالرقص ، ولم ير الأطفال حفلة أبهج ولا أحلى من هذه الحفلة ، وأحست إليزا بأنها ملكة متوجة ، واستمر الرقص حتى الحادية عشرة ليلاً ، ثم انصرف المدعوون .

صوفي : يا رب ، أحس بحرارة خانقة .. وقميصي مبلل بالعرق .

مرغريت : وأنا أيضاً .. إن فستاني يقطر ماء .

مادلين : آه .. قدماي تؤلمانني .

كاميل : لم أعد قادرة على الوقوف ، لقد رقصت حتى أجهدت نفسي .

مرغريت : هل رأيت ذلك الرجل السمين كيف كان يتدحرج وهو يرقص ؟

كاميل : نعم .. لقد كان يقفز في الهواء ويدور حول نفسه وقد نسي بطنه المدور .

صوفي : وتلك المرأة النحيفة الطويلة التي أصابت برأسها الفوانيس ؟

مادلين : لقد كادت تحرق شعرها .. وإلا كانت احترقت كعود كبريت .

صوفي : وهل رأيت تلك الفتاة المتعجرفة التي تنظر إلينا باستعلاء ؟

مادلين : لا لم أرها ، ماذا كانت ترتدي ؟

صوفي : فستانها رمادي وله زهرات حمراء كبيرة .

مادلين : آه .. إنها خادمة خجولة .. وليست متعجرفة كما تظنين .

صوفي : لا أظن ذلك ، وهل لاحظت الأخرى لابسة ثوب الموسلين الأبيض ذات الحزام الأزرق الذي يصل حتى الأرض ؟ كم كانت قبيحة ! .

كاميل : لا تذكري الناس إلا بالخير ، لأنهم جاؤوا وقد ارتدوا ما يملكونه ، وكم استمتعنا بحضورهم !

صوفي : كم أنت متشددة .. هل ممنوع عليَّ أن أضحك من الناس السخفاء ؟ .

كاميل : ولكن كيف تظنين أن كل الناس سخفاء ؟ .

صوفي : إذا كنت تجدينهم ناساً ظرفاء فلست مضطرة إلى أن أراهم كما ترينهم .

مادلين : صوفي .. صوفي .. سوف تغضبين إذا تابعت على هذا المنوال .

صوفي : لا ، لن أغضب ، ولكني أظن أن كاميل مدّعية حين تظن نفسها مثال الطيبة والرحمة ، فهي لا تسخر من أحد أبداً ولا ترى حماقات الآخرين .

مرغريت : هذا من حسن حظك أنت .

صوفي : ماذا تقصدين ؟ .

مرغريت : أقصد أننا لا نضحك من حماقاتك حين ترتكبينها .

صوفي : لا يهمني رأيك .. فأنت غبية .

إليزا : ما هذا .. ما هذا ؟ هل بدأتما الشجار ؟ .

صوفي : إنها مرغريت تقول حماقات .

إليزا : ولكني سمعتك أنت تقولين عن مرغريت إنها غبية .

صوفي : لقد أجبتها فقط ، وهي التي بدأت .

مرغريت : هذا صحيح ، لقد قلت إنها تنطق بالحماقات لأنها وصفت كاميل بكلمات نابية .

إليزا : يا بنات .. يا بنات .. أهكذا تنهين هذه الحفلة الرائعة ؟ أهذا وقت الجدال والسباب ؟ .

فسكتت صوفي ومرغريت وأطرقتا إلى الأرض وسُمِعَ منهما :

– عفواً صوفي .

– عفواً مرغريت .

ثم تعانقتا واعتذرت صوفي من كاميل التي كانت طيبة القلب فلم تحمل لها حقداً ، ثم انصرفت البنات إلى غرفهن وأدين صلاتهن ، ثم نمن هادئات راضيات .

الفصل السابع عشر

ركوب الحمير

– ماما .. لماذا لا نركب حماراً نتنـــزه فوقه .. هذا مسلٍ ؟

السيدة رسبورغ : لم أفكر في هذا أبداً .

السيدة فلورفيل : ولا أنا أيضاً ، ولكننا نستطيع تلافي هذا النسيان ، عندنا حماران في المزرعة ، وحماران في الطاحون ، وحماران في مصنع الورق ، فيكون عندنا ستة .

كاميل : وأين نذهب مع هذه الحمير الستة ؟

صوفي : نستطيع الذهاب إلى الطاحون .

مرغريت : لا . جانيت شريرة جداً ، ومنذ أن سرقت لي دميتي وهي ترميني بنظرات حاقدة .. لا أريد أن أراها .

مادلين : هيا نذهب إلى البيت الأبيض ، نرى لوسي .

صوفي : ليس المكان بعيداً ، سنذهب إليه ماشيات .

السيدة فلورفيل : عندي فكرة أظنها جيدة وستوافقن عليها .

كاميل : ما هي يا ماما .. قوليها أرجوك .

السيدة فلورفيل : أن يكون عندنا حمار سابع .

مرغريت : وماذا نفعل بحمار دون راكب ؟ .

السيدة فلورفيل : سنحمل عليه المؤونة ، هل فكرت بهذا ؟

مادلين : المؤونة ؟ ماذا نفعل بالمؤونة ؟

السيدة فلورفيل : المؤونة لنا جميعاً أيتها النهمات .

مرغريت : لماذا لا نأكلها على الطاولة بدل أكلها على ظهر الحمار .

وانفجر الجميع ضاحكين لفكرة أن يكون ظهر الحمار مائدة يأكلن عليها .. وشاركتهن مرغريت ضحكهن .

وقالت مدام فلورفيل : سيحمل الحمار مؤونتنا حتى الغابة المجاورة للطاحون ، وهناك نختار بقعة ظليلة نفرش عليها المائدة ونأكل معاً .

واندفعت إليها البنات يعانقنها ، فتخلصت منهن بصعوبة وهي ضاحكة : والآن سأدبر الحمار السابع .

وأسرعت البنات إلى بيت إليزا يخبرنها بأمر النـــزهة غداً .

إليزا : أشكركن من كل قلبي لأنكن فكرتن فيّ ودعوتنني إلى هذه النـــزهة ، ولكن .. لدي شيء آخر أفعله غير التسلية ، فإذا لم أساعد أمكن فإني سأنصرف إلى الخياطة .

مادلين : أي خياطة ؟ لا أظنك مستعجلة لإنهائها .

إليزا : لقد أنهيت عدة فساتين من البوبلين ولم يبق سوى الأكمام حتى ..

مرغريت : اتركي الخياطة الآن .

إليزا : ومن يخيطها إذا لم أفعل أنا ؟

كاميل : سنساعدك نحن على خياطتها .

إليزا : آه .. شكراً يا حبيباتي .. لا أريد منكن المساعدة لئلا تفسدن كل ما صنعته .. لا .. لا .. لكل عمله ، العبن وتنـــزهن فوق العشب ، وأما واجبي فهو إنهاء الخياطة ، وإني كبرت على اللعب والجري في الغابة .

صوفي : ولكنك كنت ترقصين بشكل رائع ليلة الحفلة .

إليزا : آه .. هذا شيء آخر .. الرقص يحرك الدم .. وأما التنـــزه في الغابة فلا أهتم به ، يجب أن أنهي خياطتي .

رأت البنات أن إليزا جادة في رفضها فودعنها ومضين إلى السيدتين ينقلن إليهما اعتذار إليزا .

قالت السيدة فلورفيل : إن إليزا لا تخلط بين الجد واللعب ، وهي تعرف واجباتها ولا تريد أن تُحْرجنا بحضورها ، وتسعى إلى الانتهاء من خياطتها لئلا توصف بالتقصير والإهمال ، إنها امرأة صالحة لا تهمل واجباتها .

نسيت البنات موضوع إليزا وانصرفن إلى التفكير في نزهة الغد .

قالت صوفي بعد ساعتين من الملل والتثاؤب : يا رب ، ما أطول النهار .

وأجابتها مادلين : سوف نأكل بعد نصف ساعة .

صوفي : وما يزال أمامنا الليل بطوله ، متى يأتي يوم الغد ؟ .

مرغريت : حين ينتهي هذا اليوم .

صوفي : أنا أعرف أن اليوم لن يكون غداً وأن الغد ليس اليوم .

مرغريت : وأن بعد الغد هو بعد الغد .

صوفي : هل تسخرين مني وتحسبين نفسك ذكية ؟

مرغريت : هل تقصدين أني لست أذكى منك .. أليس كذلك ؟

صوفي : لم أقل هذا .. ولكنك تدفعينني إلى قول الحماقات .

مرغريت : بل تقولينها من تلقاء نفسك .

كاميل : مرغريت .. مرغريت ..

مرغريت : عفواً ، ولكن صوفي في بعض الأحيان ..

صوفي : قوليها بسرعة .. صوفي غبية !

مرغريت : لا .. لم أقل إنك غبية ، بل عجولة لا تصبرين .

صوفي : وماذا رأيت من عجلتي وقلة صبري ؟

مرغريت : منذ ساعتين وأنت تتثاءبين ولا تكفين عن الحركة ، وتنظرين إلى الساعة ، وتقولين إن النهار طويل .

صوفي : حسناً .. وأين الضرر في هذا ؟ إني أقول بصوت مرتفع ما تفكرين به أنت .

مرغريت : لا .. نحن لا نفكر كما تفكرين ، أليس كذلك يا كاميل ؟

كاميل : نحن البنات الأكبر نعرف كيف ننتظر بصبر .

مرغريت : وأنا الأصغر منكن .. ألا أعرف الانتظار بصبر ؟ .

صوفي : نحن نعلم أنك الأكمل وأنك الأذكى وأنك أحسن الخلق أجمعين .

مرغريت : وأني لا أشبهك أيضاً .

كانت السيدة رسبورغ تسمع من القاعة ما يدور بينهن من حديث ، ولم تكن تريد أن تتدخل بينهن حتى يعرفن الخطأ من الصواب دون توجيه منها ، ولكن حينما وصلت محاورتهما إلى هذا الحد ، وجدت من واجبها التدخل لتفصل بين الصديقتين .

السيدة رسبورغ : مرغريت ، لقد صارت لديك عادة التهكم وقول الكلام المؤذي ، وإذا كانت صوفي أقل صبراً منك فليس هذا سبباً للتهكم بها ، إني آسفة من أجلك ، كنت أظنك أكثر سماحةً وكرماً .

مرغريت : سامحيني يا ماما .. لا أريد أن تغضبي مني وأن توبخيني ، ولن أعود لمثلها أبداً .. وأنت يا صوفي أطلب منك المعذرة فإني أتسرع في الحكم عليك .. فأوذيك وأوذي أمي .

لاحظت صوفي أنها صادقة فعانقتها بحنان دليلاً على عودة الود بينهما ، وأمضى الجميع أوقاتاً مرحة حتى المساء ، ونامت صوفي هانئة لم تحلم بشيء حتى أيقظتها المربية الساعة الثامنة من صباح الغد .

وما إن غسلت وجهها ومشطت شعرها وارتدت ثيابها حتى سارعت إلى النافذة فرأت سبعة حمير مربوطة أمام البيت فنــــزلت إليها تتفحصها .

قالت : هذا الحمار صغير جداً .. وهذا قبيح جداً بشعره المنكوش ، وهذا الرمادي الكبير يبدو عليه الكسل ، وهذا الأسود أظنه شرساً ، وهذان الحماران الأشقران نحيلان جداً ، وهذا الأشهب أفضلها وأجملها ، وسوف أركبه أنا ،

ولسوف أربط فوق ظهره قبعتي وشالي لئلا يأخذه الآخرون ، ستحاول البنات أخذه ولكني لن أتنازل عنه .

أما نيكوس وولده فقد حمّلا سلتين من المؤونة فوق ظهر الحمار الأسود ، ووصل الجميع بعدئذٍ جاهزات للنـــزهة .

السيدة فلورفيل : لتأخذ كلٌ واحدة حماراً ولنبدأ بالأصغر .. مرغريت أي حمار تفضلين ؟

مرغريت : لا يهمني .. كلها سواء ، اختاري لي واحداً .

السيدة فلورفيل : إذا كان الاختيار لي فإني أنصحك يا مرغريت بأحد هذين الحمارين الصغيرين ، وسيكون الآخر لصوفي ، إنهما رائعان .

صوفي : لقد اخترت حماري يا سيدتي ، هذا الأشهب ربطت فوقه قبعتي وشالي .

السيدة فلورفيل : ما كان عليك أن تسبقي صاحباتك إلى اختيار الحمار ، وكنت أفضل لو تركتِ لي اختيار واحد لك ، ولكنك تستطيعين أخذ الحمار الذي اخترته .

وخجلت صوفي وتمنت لو أنها لم تجلب العتاب لنفسها ، ويتبين للجميع أنها لم تبرأ من أنانيتها بعد .

ركبت كل واحدة فوق الحمار الذي اختارته .

انطلق الجميع . السيدة فلورفيل والسيدة رسبورغ في المقدمة تتبعهما مادلين وكاميل ومرغريت وصوفي ، وفي المؤخرة نيكوس وولده ومعهما حمار المؤونة .

مشت الحمير بتؤدة ، ثم هرولت راكضة ماعدا حمار صوفي الذي لم يشأ أن يفارق حمار المؤونة ، وضحكت البنات ، والحمير تجري بهن مسرعة على حين أبى حمار صوفي إلا السير بتؤدة ليبقى قرب صديقه ، واختفى الجميع عن نظرها بعد لحظات ، فجعلت صوفي تبكي فكان ابن نيكوس يواسيها فلا تزيدها مواساته إلا بكاء ، وقال لها :

- لا تبكي يا آنسة ، لقد أخطأت في اختيار حمارك ، وهذا أمر طبيعي لأنك لا تعرفين الحمير ولم تعاشريها في حياتك ، وقد خدعك هذا الحمار بمظهره الوديع ولونه الجميل ، وأنا أعرفه كسولاً عنيداً لا يفعل إلا ما يدور في رأسه ، ولكن لا تحزني لأنك ستتبادلين مع كاميل التي تتنازل لك عن حمارها راضية فهي طيبة القلب ، وسوف تركبين حمارها وتسبقين الجميع .

لم تقل صوفي شيئاً ولكنها خجلت من نتيجة أنانيتها ، وما زال الحمار الأشهب يتهادى بها حتى وصلت إلى المكان المعين فلم تجد أحداً .

وذلك أن السيدة فلورفيل منعت البنات من انتظارها لكي تلقنها درساً ، فذهبن إلى الغابة بصحبة السيدة رسبورغ فلعبن وقطفن الأزهار وجمعن الفريز والجوز ورجعن ضاحكات متوردات الخدود ، وجلست صوفي قرب شجرة كئيبة مصفرة الوجه .

واندفعت إليها كاميل تعانقها :

- لم يشأ حمارك العنيد أن يجري يا صديقتي ؟

- لقد عوقبت على أنانيتي ، وسوف أمدد هذه العقوبة فأعود راكبة عليه .

وهتفت مادلين : لا . لن تعودي عليه .. إنه كسول جداً .

فقالت صوفي ضاحكة : لقد كتب الله عليّ ركوب هذا الحمار الكسول ، ولا مفرّ من قضاء الله .

واستعادت مرحها وساعدت صديقاتها على ترتيب المائدة ، وكانت المائدة حافلة بأنواع المآكل اللذيذة ، ومما زاد في نكهتها جو الغابة العطر وهواؤها الطلق .

مرغريت : ما أطيب هذا الغداء ، خاصة سمك السلور .

صوفي : واللحم المفروم هل تذوقته ؟

كاميل : لقد أعجبتني المعجنات بالفواكه .

مادلين : أنا أكلت بشراهة .

مرغريت : كنت جائعة جوع الذئب .

السيدة رسبورغ : هل تشربين بعض العصير ؟ ما زال منه الكثير .

مرغريت : نعم يا أمي .. لعلني أهضم ما أكلته .

وبعد أن أنهت البنات غداءهن قمن بجولة أخرى في الغابة وقد اصطحبن معهن صوفي هذه المرة ، وأكل نيكوس وولده ثم أعادا ترتيب الأشياء والأواني في السلتين ، وقال ابن نيكوس : يجب ألاّ تعطي حمار كاميل لصوفي ، والأفضل أن نحمل على الحمار الكسول السلتين ، وتأخذ صوفي الحمار الأسود ، ولا أظنه شرساً كما يبدو عليه لأنه حماري وأعرفه .

– افعل ما تريد يا بني .

بعد أن أنهى الجميع نزهتهن ورجعن إلى الموقع وجدن الحمير مسرجة ، ودهشت صوفي إذ رأت حمارها الأشهب يحمل المؤونة ، فقالت : أي حمار سأركب الآن ؟

– خذي الحمار الأسود ، ولا تخافي فهو وديع وسريع ولن تتأخري عن صاحباتك . وسوف يسرع بك حتى القصر .

حينما عاد الجميع إلى القصر وقفت السيدة فلورفيل وطلبت منهن الانتباه ، وقالت : لدي مفاجأة ، فقد وصلتني رسالة من عمكم روجيه يعلن فيها أنه سيقضي العطلة بيننا هو وعائلته .

وهللت البنات لهذا النبأ .

جاءت العطلة وزارهم العم وعائلته ، وكانت مناسبة جديدة ليتعرف الأولاد بعضهم على بعض ، ولكن هذه حكاية أخرى لا يكفي هذا الكتاب للحديث عنها ، وربما جاءت المناسبة لأحكيها لكم في كتاب قادم .

الفهرس

روايات عالمية للناشئة

فتيات مثاليات

كونتيسه دي سيغير

